الفصل الثانى

التـــــــاريخ

عطيل - كما قلنا - يمثل المسودة الأولى للشخصية العربية قبل أن تتفاعل مع التاريخ .

ولكن هذا المعطى الأول للطبيعة سوف يقذف به فى جوف الوعى البشرى ، ويحدث حينئذ الصراع بين الطبيعة والانسان ، بين المحتوى الجغرافى والتقاويم التاريخية ، ويتكشف هذا الصراع فى النهاية عن اضافة جديدة للشخصية العربية ، فالعربى ليس هو الحتم الجغرافى أو العطاء الطبيعى فحسب ، ولكنه أيضا ذلك التفاعل الذى يضيف عنصر جديدا ، هو التاريخ ، أو الوعى البشرى ، فعطيل اذن أكذوبة من ناحية ، وحقيقة من ناحية زخري ، هو أكذوبة تاريخية ، وحقيقة جغرافية .

ونحن لا نستكشف الشخصية العربية من الجغرافيا فحسب ، أو من التاريخ فحسب ، ولكن منهما معا ، واذن فلنبتعد في هذا الفصل عن عطيل شكسبير ولنبحث عن الصورة الجديدة لعطيل ، وقد ألقى به فى جوف التاريخ .

وكلما كانت الصورة الجديدة مستوحاة من الخطوط الأولى والأساسية للشخصية القديمة أو الطبيعية ، كان هذا إيذانا بازدهار الشخصية العربية ، واتيانها بالمعجزات التى تضيف جديدا الى التاريخ الانسانى العام .

وكلما كانت الصورة الجديدة منحرفة عن المسودة الأولى ، أصبحت مشوهة ، تقنع بدور التابع فى ملحمة الحضارة الإنسانية .

هنا قمة الانتصار ... وهنا قمة المأساة أيضاً .

إن المسودة الأولى التى لخصناها فى عبارة « تجاور الشيئين مع تمايزهما » ، يمكن أن تكون نقطة انتصار ، حينما يتحقق شىء واحد ، وهو الاهتداء إلى الروح العربى ، ومحاولة ضبطه وتنظيمه لاستخراج أحسن ما فيه .

ولكن هذه المسـودة قد تكون نقطة مأساة ، حين يساء فهمها ، فتتحول إلى قوة تدمير .

ومشكلة التاريخ العربى هو دقة الفصل بين الفهم وسوئه و وبين الاهتداء إلي الروح العربى والانحراف عنه . ودع عنك سوء النية فى تشويه الشخصية العربية ، مع سبق الاصرار والترصد ، مما تعرضت له من الخارج على مدي التاريخ العربى ، دع عنك هذا ، فنحن لانزال نتحدث من داخل التاريخ العربي ، عن هؤلاء الذين يهتدون إلى الروح العربى ، وعن هؤلاء الذين يضلون الطريق إليه .

***

ولعلى لا أبالغ لو قلت : ان الانبعاث الحقيقى للشخصية العربية لم يتحقق - بصورة كاملة - فى فترة من التاريخ العربي ، كما تحقق فى صدر الاسلام ، وبالتحديد فى عصر الرسول وأبى بكر وعمر .

الإسلام هو تجسيد للروح العربى فى أدق صوره ، نحن نقر بأنه دين سماوى ، ولكنه دين لم ينزل فى فراغ ، أو يهبط على قوالب غريبة ومعدة ليملأها ، فان هذا التصور بعيد عن طبيعة هذا الدين . الذى يجعل الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويسخر من الكفار فى تصورهم غير الواقعى ، والملىء بالأساطير والغرائب ، انهم لا يؤمنون بمحمد حتى يكون له سلم يرقى به إلى السماء ، أو يمشى بين يديه ملك .

يقينا أنه لو خاطب الناس بلغة لا يفهمونها ، أو أنه أنزل عليهم طلاسم ومراسيم ، أو تنكر لطبيعتهم البشرية ، فحملهم ما لا يطيقون ، وكلفهم بما ليس فى وسعهم . لو كان ذلك كذلك لما اقتنع به الناس ولما تسلل إلى نفوسهم ، فقد كان فى الجزيرة العربية متنبئون « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أو قال أو حى إلى ولم يوح إليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله »[1] ، ولكنهم لم ينجحوا كما نجح الإسلام ، لأنهم كانوا يصدرون عن كذب وزيف ، أما هو فقد كان يصدر عن صدق وحقيقة ، فهو وحده الذى استطاع أن يكتشف الروح العربى وينفخ فيه .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٣ .

مرة أخرى ، هو لم ينزل فى فراغ ، ولكنه أدرك الشعرة الدقيقة ، فلم يلغ النفوس العربية الغاء ، لأنه يعرف أن هذا ضد الفطرة ، ولأنه يريد تلك النفوس . يريد أن يفجرها من الداخل ، ويبتعث عبقريتها ، ومن ثم فهو أبقى على أشياء رآها صالحة ، وألغى أشياء رآها قد رانت على النفس العربية وحجبت عنها جوهرها .

باختصار هو ابتعث الروح العربى الأصيل من مكمنه الجغرافى ، ووضعه فى طريق التاريخ . هو لم يتنكر للمكان و ولكنه وضع المكان في الزمان ، ولست أعنى بالمكان « المحتوى الجغرافى » فحسب ، ولكن انعكاس هذا المحتوى على الانسان ، أى انعكاس تجاور السماء والأرض ، الظل والحرور ، الأبيض والأسود ، الماء والجدب ، على التكوين النفسى للبشر . وأعنى بالزمان هو وضع هذا المحتوى فى التاريخ ، ونقله من السيولة إلي مرحلة الخلق ، فالاسلام لم يلغ هذا التكوين البشرى فى محتواه الواقعى ، ولكن نقاه وأعطاه قيما ضابطة ، ونقله من المحلية إلى المرحلة الإنسانية ، من المكان إلى مرحلة الزمان .

***

عرفت الجزيرة العربية قبل الإسلام أديانا كثيرة ومذاهب متعددة وكان الكثيرمن تلك المذاهب يفد إليها من الخارج . عرفت اليهودية ، وعرفت النصرانية ، وعرفت عبدة الكواكب والنار والشجر .

كان العصر الجاهلى يمثل مرحلة التشوف والانتظار والبحث عن طريق ، كانت تلك الفترة أشبه بالفترة التى تمر بها المرأة قبل المخاض ، فقد بلغت الجزيرة العربية حدا من الحضارة ، وظهرت مدن ذات طابع تجارى مثل مكة والمدينة . ولعبت القافلة دوراً كبيراً فى حمل النقول والأمتعة فى رحلات لا تنقطع : صيفية وشتوية . وكانت تحمل معها أيضاً الحضارة والأفكار ، مما جعل المجتمع يمر بمرحلة حبلى بالأفكار والثقافات .

ولكن معظم هذه الأفكار لم يكتب لها النجاح ، لأنها لم تعبر عن الروح العربى الأصيل ، هى أفادت فحسب فى إثارة الأذهان ، وحركتها فى إنتظار الجديد والأصيل .

وكان هناك تيار لا نعرف عنه كثيرا ، يشق طريقه بصعوبة وسط تلك التيارات الكثيرة والوافدة ولكن فى تصميم ، لأنه نابع من المجتمع ويعبر عن ضميره ، ذلك هو تيار الحنفاء ، الذى وجد فيه بعض العرب خلاصهم من الحيرة والتردد بين تيارات لا تتفق وطبيعته ، لأنها وافدة مع النقول والأمتعة الجديدة ، التى تحملها القوافل وأدمغة الحداة . يخرج زيد بن عمرو بن نفيل إلى الشام يسأل عن الدين . فلقى عالما يهوديا فقال « لا تكون إلا أن تأخذ من غضب الله » ، ثم أتى عالما نصرانياً فقال له نحوا مما قاله اليهودى ، ولما لم يجد طلبته اعتنق الحنفية وقال « اللهم إنى على دين إبراهيم »[1] .

إن الكتب لا تتحدث كثيرا عن هذا التيار ، إلا أن فريقا من العرب اعتزلوا الأوثان وعبدوا الله الواحد الأحد ، على دين إبراهيم وإسماعيل ، أى دين الآباء والأجداد ، فالعرب ينتسبون إلى إسماعيل الذى أقام فى مكة وتزوج من جرهم . ومن هنا كان هذا التيار تياراً عربيا خالصا ، ونظرة خاطفة إلى أسماء بعض الذين اعتنقوا هذا التيار نجدها تنتسب إلى جذور عربية ، فزيد بن عمرو عربى أصيل وابن عم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد قال عنه النبىﷺ « يأتى يوم القيامة أمة وحده » . وورقة بن نوفل كان أحد أربعة من العرب تفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنفية ، وقد سئل عنه رسول اللهﷺ فقال « قد رأيته في المنام كأن عليه ثيابا بيضاء ، فقد أظن أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض » . وخالد بن سنان بن غيث هو من عبس بن بغيض ، وروى أن النبىﷺ قال « ذلك نبى أضاعه قومه » وأتت ابنته رسول اللهﷺ فسمعته يقرأ « قل هو الله أحد » فقالت : كان أبى يقول هذا »[2] ، وأبو قيس صرمة بن أنس « وهو من بنى النجار وكان ترهب ولبس المسوح وفارق الأوثان وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ودخل بيتاً له ، فاتخذه مسجدا لا يدخل عليه طامث ولا جنب وقال : أعبد رب إبراهيم . فلما قدم رسول اللهﷺ أسلم وأحسن إسلامه »[3] .

لا نعرف عن هذا التيار العربى الأصيل كثيرا فى العصر الجاهلى ، ولكن الذي

---

(١) الأغانى ٣/١٥ « بولاق » .
(٢) المعارف ص ٦٢ .
(٣) المعارف ص ٦١ .

عرفناه أنه هو التيار الذى كتب له النجاح بعد ذلك ، وتشكل فى صورة كاملة غيرت مجرى التاريخ ، فان الإسلام يرى نفسه امتدادا لهذا التيار ، وأن المسلمين هم الحنفاء ، وأن أحب الأديان إلى الله الحنفية السمحة كما قال الرسول[1] .

والقرآن الكريم صريح فى النص على هذا فى آيات كثيرة ، فهو ينفى أن يكون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا أو من المشركين ، ويؤكد أنه كان حنيفا مسلما « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين »[2] ويأمر العرب بترك الأديان الأخرى ، واتباع الإسلام ، لأنه دين الحنفية ، وملة إبراهيم « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين »[3] .

فالإسلام يمتد بجذوره إلى هذا التيار العربى ، فهو الحنفية بعد أن تمادت واتسعت ، وانتصرت علي التيارات الأخرى . والحنفية هى الإسلام ولكن فى جذوره الأولى الصالحة للنمو . يقول صاحب اللسان « كانوا لا يعرفون من دين إبراهيم إلا الختان وحج البيت ، فلما جاء الإسلام تمادت الحنفية » .

***

إن التيارات الأخرى لم تعبر عن الروح العربى . كما عبرت الحنفية ، التى أصبح اسمها الإسلام ، فهو قد اهتدى إلى عبقرية المكان ، وفجرها ، ومنحها مفاهيم جديدة ، لا تتضارب مع الجذور الأصلية ، وإنما تحاول تنقيتها ووضعها فى مهاب التاريخ .

إن « الوثنية » لا تعتبر تياراً ثقافيا ، فهى ملتصقة بالواقع غير مفارقة له ، إنها تعبير عن حاجات بدائية ، وانعكاس لمطالب إنسان أولى ، لا يستطيع أن يعلو فوق واقعه ، إن الواقع يجذبه فى تياره المتلاحق ، فلا يستطيع أن يخلص نفسه فى حركة يتجاوز فيها الواقع ، ويحيله إلى موضوع لذاته ، بدلا من أن

---

(١) لسان العرب « حنف »
(٢) سورة آل عمران الآية ٦٧.
(٣) سورة البقرة الآية ١٣٥ .

يكون هو موضوعا ، أو مادة مندرجة فى مواد العـالم الخـارجى ، ومن ثم كانت « الوثنية » هى المعادل لتلك التطلعات للرجل العامى المنخرط فى واقعه . إنها تطلعات لم تخلص بعد من المادية والتجسد . ولم تستطع أن تفارق الطبيعة لتتأملها ، فقد كان العربى الوثنى يصنع إلهه على هواه ، قد يصنعه من العجوة أو الحلوى ، حتى إذا جاع أكله ، وقد يزجره إذا لم يستجب لمطالبه ، إنه إله عاجز مادى كل أهميته فى أن يرضى غرور المرء ، وأن يصغى لمطالبه ، فإذا لم يفعل استحق أن يهشم أنفه ، وأن يرمى النبال فى وجهه ، فهو إذن وفى الحقيقة ليس إلها معبودا ، ولكنه إله عابد يطيع معبوده ، ومن ثم فان الكثير من العرب فى مرحلة التشوف ضاقوا بهذا الإله العاجز ، ووجدوه لا يشبع طموحهم الروحى . فاعتزل بعضهم الأوثان ، واعتنق بعضهم اليهودية ، أو النصرانية ، أو الحنفية التى لم تتشكل بعد فى صورتها الكاملة ، وكانت مجرد هاجس تهجس فى النفوس ، يحسون بها ، ولكنهم لا يستطيعون التعبير عنها ، أو ما هم مهيئون لذلك .

حقيقة كانت اليهودية فى نشأتها الأولى نقلة نحو السمو الفكرى ، وثورة على الالتصاق بالواقع والمادة ، فقد دعا موسى قومه إلى إله واحد قادر ، وألقى إليهم بالألواح مليئة بالموعظة . ولكنها كانت نقلة تتفق والمرحلة التاريخية ، فقد كان الإله يتمثل لهم فى عمود من نار ، أو يأتيهم مع السحاب ، ويخاطبهم من المعبد ويتحدث إليهم ، وكان عنيفا يهدد بالصواعق ، ويعرف أنه يخاطب شعبا عنيدا صلب الرقبة كما وصفهم موسى ، شعبا يريد أن يخلد إلى الراحة والعدس والبصل والفوم ، شعبا لم يرق بعد إلى المرحلة الكاملة المفارقة للواقع ، أنه لا يزال يحن إلى الوثنية ، وينتهز فرصة غياب موسى فى الجبل ، ويتخذ له عجلا من ذهب ويعبده .

ثم كانت المسيحية شيئا مقابلا لذلك ، تمام المقابلة ، وكان المسيح نسمة روحية على الأرض ، وجاءت تعاليمه تتوالى ، لتدعو إلى الزهد فى الدنيا ، وتخلص المرء من الارتباط بالمادة ، والالتصاق بالواقع « إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى »[1] « لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض ، حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث

---

(١) متى ١٩/٢١ .

لا ينقب السارقون ولا يسرقون »[1] « لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون »[2] « الحق أقول لكم : ليس أحد ترك بيتا أو إخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا لأجلى لأجل الإنجيل . إلا ويأخذ مائة ضعف الآن فى هذا الزمان بيوتا واخوة وأخوات وأمهات وأولادا وحقولا مع اضطهادات ، وفى الدهرالآتى الحياة الأبدية »[3] .

***

عرفت الجزيرة العربية - فى مرحلة الإرهاص - اليهودية والنصرانية، ولكن لم يكتب لهما النجاح لأنهما لم يفجرا عبقرية المكان ، ولم يعبرا عن الروح العربى ، الذى لا يكتفى بالبعد الواحد ، لأنه يرى أمامه ظل النخلة ، قد انطرح كشئ أسـود ، يتمدد فوق فراش من الرمل أبيض ، ويرى أوراقها الطويلة الخضر قد تفرعت فى السماء ، تتحدى رهبة الموت والقحط ، ويجلس إلى ظلها هربا من القيلولة ، والتماسا للنسمات المنعشة ، ويأكل من ثمرها بعد رحلة شاقة ، فيكتب له النجاة ، ويدرك أن مع العسر يسرا ، وأن الله يرزقه كما ترزق الطير ، تغدر خماصا وتروح بطانا ، فتهدأ حدته وثورته ، وينشد الشعر ، ويجتر الذكريات .

لقد وجد اليهودية مادية عنيفة ، كأنها رمال سيناء المحرقة ، أو كأنها الأحجار القاسية التى لا تبض[4] . ووجد المسيحية نسمة رقيقة ، كتلك النسمات الشمالية ، التى تأتيه من أرض الشام ، أرض الزيتون والفواكه والمسيح والروح القدس ، فتطلع إلى دين كامل ، تتجاور فيه كل هذه الأشياء ، كما يتجاور الليل والنهار ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، وكما تتفجر الأحجار فيخرج منها الماء ، وكما تنشق الأرض عن نبتة خضراء ، وكما تسيل عين تحت الرمال ،وكما يخرج الحى من الميت والميت من الحى ، وكما يلتقى البحران العذب والملح .

لقد تجاور الشيئان فى الإسلام ، والتقت على أرضه اليهودية والمسيحية ، إنه

---

(١) متى ٦/١٩ - ٢٠ .
(٢) متى ٦/٢٥ .
(٣) مرقص ١٠/٢٩ - ٣٠ .
(٤) « لا يبض حجره » أى لا يخرج منه خير ، يقـــال : بض الماء ، إذا خرج قليلا . (المزهر ١/٤٩١) .

لا ينكر المادة ولكن لا يعبدها ، وإنه لا ينكر الروح ولكن لا ينسيه المادة ، وان المسلم يعمل للدنيا كأنه يعيش أبدا ، ويعمل للآخرة كأنه يموت غدا ، وأنه يبيح لنفسه الطيبات ويتخذ الزينة والرائحة ، ويأكل اللحوم ويستاك ، ولكن هناك لحظـات للرب يرقى فيها الروح ويناجى مولاه ، إن الإسلام « يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الأعلى ، ويدعوها إلى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم . وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ، ولا يفرض من الرياضيات وضروب الزهادة ، ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه ، حتى فى توفية البدن حقه ، متى حسنت النية ، وخلصت السريرة ، فاذا نزت شهوة أو غلب هوى ، كان الغفران الإلهى ينتظره ، متى حسنت التوبة وكملت الأوبة »[1] .

***

لقد تجاور الشيئان هنا : المادة والروح ، الدنيا والآخرة ، القوة والرحمة . ولكن مع تمايزهما ، فلا توجد عقيدة أوضح ولا أصرح من الإسلام ، ليس فيه غموض يستعصى على الفهم ، ولا أسرار تجافى الطبيعة البشرية . وآيات القرآن الكريم غاية فى الوضوح والصراحة والدعوة إلى الصراط المستقيم ، يقول تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »[2] ، وروى فى تفسير النسفى أن الرسولﷺ خط خطا مستقيما ، فقال : هذا هو سبيل الرشد ، ثم خط ستة خطوط مائلة على كل جانب فقال : هذه سبل ، على كل سبيل شيطان يدعو إليه ، فاجتنبوه ، وتلا الآية السابقة .

وأحكام الإسلام ومواقفه لا تختلط ولا تتداخل ، فالدنيا دنيا ، والآخرة آخرة ، يعمل المرء في التجارة ، ويضرب فى الأرض ، ويسعى للرزق . ولكن إذا نودى للصلاة ، يذر التجارة واللهو ، ويسعى لذكر الله ، ويفرغ القلب له . حتى إذا ما انتهي من المناجاة بصدق وإخلاص ، انتشر فى الأرض ، وعاد لدنياه كغيره من الناس ، وما أسهل أن يعود مرة أخرى لصلاته وروحانيته ، فالأرض كلها مسجد وتربتها طهور .

---

(١) رسالة التوحيد ص ١٤٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥٣ .

والإله هو الإله ، يفارق البشر ، ليس كمثله شيء ، لا تدركه الأبصار ، يجل عن الوصف والاحاطة والادراك . ولكن هذا الإله المتعالى هو فى الوقت نفسه ، أقرب إلى الناس من حبل الوريد « ما يكون من نجوى ثلاثة الا هـــو رابعهم ، ولا خمسة الا هو ســادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هــو معهم ، أينما كانوا »[1] . انه مفارق ولكنه قريب ليس قرب تشكيل فى مادة ، أو حلول فى بشر ، فهو منزه عن كل ذلك ، فالبشر أيضا بشر ، يجب أن يخلصوا لبشريتهم ، دون أن ينسوا هذا المفارق القريب ، القوى الرحيم .

وبهذا التجاور بين الشيئين كان الإسلام معبرا عن الطبيعة البشرية المتكاملة ، وواقعيا فى فهم التركيب البشرى ، انه دين الطبيعة ، أو إذا أردنا تعبير القرآن ، فهو دين الفطرة التى قال الله عنها « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم »[2] . ومن هنا كانت تعاليمه تنبثق من هذا المفهوم ، انه لا يشرع من العقائد ما هو فوق الطاقة البشرية والدين يسر لا عسر ، وكل ميسر لما خلق له « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »[3] « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا »[4] « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به »[5]

***

ولكن إذا وقفنا عند حد أن الإسلام عبر عن « تجاور الشيئين مع تمايزهما » ، فلن نكشف عن الجانب الحقيقي الأساسى لمعطياته . ان ما أبرزناه آنفا هو أن الإسلان لم يتنكر للطبيعة البشرية . ولم يقسر الروح العربى . وان ما نريد أن نبرزه الآن هو أن الإسلام لم يكتف بهذا الروح كما هو ؛ بل نقله إلى الزمان ، وأضاف إليه « عنصر التاريخ » ، عنصر التدخل فى الأشياء وتوجيهها ، دون أن تترك

---

(١) سورة المجادلة الآية ٧ .
(٢) سورة الروم الآية ٣٠ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥ .
(٤) سورة الانفال الآية ٦٦ .
(٥) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

عشوائيا لتخبط البيئة ، ولصدفة المكان . هو لم يلغ الروح العربى ، هذا حقيقى ، ولكن فى الوقت نفسه نفخ فى أحسن ما فيه . وأخضعه للنظام والاختيار والتدخل الواعى . لقد أدرك رستم ذلك ، وقال بمرارة حين رأى المسلمين يجتمعون للصلاة « أكل عمر كبدى ، يعلم الكلاب الآداب »[1] .

لقد رأينا فى الفصل السابق - فصل الطبيعة - أن العربى كان ينتقل بين الحالتين المتجاورتين بسرعة ، كما يفعل الطفل قبل أن تمتحنه الأيام ، وتعلمه التحكم فى اهوائه ، فتارة تراه مبتسما ، ثم يتحول بسرعة إلى عابس ، وتارة يكون صديقا ، ثم يصير عدوا لاتفه الأشياء ، وتارة يكون رفيقا محبا ، ثم يصبح شرسا منتقما ، هو يتطرف فى الحالة التى يعيشها لأقصى الحدود ، يرضى فيقول أحسن ما عنده ، ويسخط فيقول أسوأ ما عنده ، إذا غضب أصبح مثل القيلولة فى رابعة النهار ، أو مثل تيارات بحر الظلمات التى لا ترتد كما يقول شكسبير عن عطيل . وإذا أحب تحول إلى طفل وديع ، أو إلى فنان رقيق - وفى الفن شىء من الطفولة - يحمل قلبه على لسانه ، ويعرضه بكل أريحية أمام الحبيبة .

إنه تطرف من صنع البيئة والمكان ، ولكن التاريخ أو الإسلام الذى أبقى على أحسن ما حققته الطبيعة ، ونفخ فيه ، يتدخل حينئذ لنقل العربى من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضج ، ومن مرحلة الفن إلى مرحلة العقل ، فجعل يحث المسلمين على التحكم فى أهوائهم ، والاعتدال فى سلوكهم ، انه يعرف أن التطرف صفة مكانية محلية ، تحتاج إلى تهذيب وتوجيه ، وانها بهذا المنحى صفة بدائية طفلية ، قد لا تصلح مع مرحلة التاريخ ، قال ﷺ « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم ، الا آكله الخضر ، فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها ، استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت » ، فالرسول هنا لا يدعو إلى اعتزال الدنيا ولا يصطدم مع الطبيعة ، بل انه يحارب التطرف ويحث على الاعتدال ويضرب الأمثلة من قلب الطبيعة العربية ، فالمسرف مثله مثل الماشية التى تستكثر من أحرار العشب التى ينبتها الربيع ، فتصاب بالحبط وهو « أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج عنها ما فيها » . وأما المقتصد فمثله مثل آكلة الخضر ، فانها متى ما أصابت « استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ، وإذا ثلطت

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٥١ .

فقـــد ذهب حبطها ، وانما تحبط الماشية إذا لم تثلط ولم تبل واتطمت عليها بطونها »[1] ، ومن هنا تواردت الآيات الكثيرة تدعو إلى القصـــد والاعتدال . « ولا تجعـــل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا »[2] « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »[3] .

***

وقد اهتمت الآيات المدنية – غالبا – بابراز عنصر الضبط ، والتدخل فى الأمور الطبيعية ، ثم توجيهها اسلاميا ، فاذا كانت الآيات الأولى تهتم بالنظر فى الطبيعة ، ثم مجاوزتها بحثا عن الثابت ، فان الآيات الأخيرة اهتمت بتحديد هذا التأمل ، وصياغته داخل اطار كامل ، ينسق سلوك المسلم ، ويحدد علاقته مع الطبيعة والآخر ، ومع الكون والإله ، انها مرحلة الضبط التى يعنيها أبو بكر الصديق ، فحين رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرآن ويبكون ، قال « كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا » ، فهو لا يعنى بقسوة القلب جموده وكفره ، ولكنه يعنى ضبطه والتحكم فى المشاعر ، أو على حد تعبير الغزالى « ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه وقلة التأثر به ، لما حصل له من الأنس بكثرة سماعه »[4] ، وكثيرا ما كان الجنيد يتحرك عند السماع في أول أمره ، ثم صـــار بعد ذلك هادئا لا يتحرك « فقيل له فى ذلك ، فقال : وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء »[5] .

انه التاريخ وقد ألقى به فى جوف الجغرافيا فوجهها ، أو هو الزمان قد سقط على المكان فأضاف الى محتواه بعدا آخر . فإذا كنا قد وجدنا فى « النخلة » رمزا للطبيعة العربية فى تجاور الشيئين مع تمايزهما ، فان الرمز الذى نجده مناسبا مع

---

(١) لسان العرب « حبط » .
(٢) سورة الاسراء الآية ٢٩ .
(٣) سورة الفرقان الآية ٦٧ .
(٤) الاحياء ١١٧٢/٢ .
(٥) الاحياء ١١٧٧/٢ .

الحالة التاريخية هو لفظ « القسطاس » ، فهو يفيد الوسطية بالمعنى الاسلامى ، الذى يراعى الجانبين أو الكفتين ، ويقيم توازنا بينهما ، وليس هذا الرمز اختراعا من عندى ، وانما هو اقتباس من القرآن الكريم ، وقد كثرت الآيات المدنية التى تتحدث عن « القسط » ، ووردت تلك المادة فى سبع وعشرين آية ، منها سبع عشرة آية مدنية وعشر مكيات[١] . ولا يعنى تكرارها الاشارة فقط إلى ذلك الميزان الحسى الذى نتعامل به ، بقدر ما هو رمز لمعنى العدالة الاسلامية التى تقيم توازنا بين الطرفين ، وتهتم بعنصر التوجيه للمشاعر ، يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وان تلوا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا »[٢] ويقول « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط . ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون »[٣] ويقول « شهد الله أنه لا إله إلا الله هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط »[٤] . ان كل هذا يشير إلى معنى « العدل » الذى تحرص علىه الآيات المدنية ، وقد فسر ابن قيم الجوزية معنى « القسط » فى الآية الأخيرة تفسيرا يعود به إلى العدل[٥] ، وهو المعنى نفسه الذى نلتقى به فى الاشتقاق اللغوى لهذه المادة « القسط : الميزان سمى به من القسط العدل ... وقال : « وزنوا بالقسطاس المستقيم » يقال : هو أقوم الموازين »[٦] .

ولعل هذا ما جعلنى أفضل لفظ « القسطاس » على لفظ « الميزان » مع أنهما يؤديان المعنى نفسه ، فان مادة « قسط » تضرب جذور أوضح إلى معنى

---

(١) المعجم المفهرس « قسط » .

(٢) سورة النساء الآية ١٣٥ « مدنية » .

(٣) سورة المائدة الآية ٨ « مدنية » .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨ « مدنية » .

(٥) مدارج السالكين ٣/ ٢٩٠ .

(٦) لسان العرب « قسط » .

العدل ، فضلا عن أن الآيات المكية التى احتوت على مادة « وزن » أكثر من الآيات المدنية[1] .

***

اهتم الاسلام اذن بعنصر الضبط واضافة المفهوم العربى ، وأصلح من التكوين الجغرافى وأقامه ، ولم يعد العربى « ابن الطبيعة » فحسب ، بل أيضا « ابن الأمة الوسط » ، التى يقول عنها القرآن الكريم فى أول سورة نزلت بالمدينة « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »[2] .

ويفسر الطبرى[3] هذه الآية فيقول « أرى أن الوسط فى هذا الموضع هو الوسط الذى بمعنى الجزء الذى هو بين الطرفين مثل وسط الدار .... وأرى أن الله تعالى ذكره انما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم فى الدين . فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى ، الذين غلوا بالترهب وقيلهم فى عيسى ما قالوا فيه . ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم ، وكذبوا على ربهم وكفروا به ، ولكنهم أهل توسط واعتدال ، فوصفهم الله بذلك ، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها » .

وأظننا لا نبتعد عن الطبرى كثيرا لو اخترنا تعبيرا آخر وقلنا : « هم أهل وسط لأنهم يجاورون بين الشيئين ويجمعون بين الدنيا والدين . هم أهل دنيا يعيشونها ويشرعون لها ، ولكنهم لا يغالون فى ذلك غلو اليهود فى الالتصاق

---

(١) فقد بلغت سبع عشرة آية مقابل ست آيات مدنيات . وربما الذى جعل مادة « وزن » تكثر فى الآيات المكية أن : ١ - تسع آيات تحدثت عن موازين يوم القيامة ، والآيات المكية تهتم بأحوال الآخرة . ٢ - خمس آيات وردت بشأن قصة شعيب مع قومه الذين كانوا لا يوفون بالكيل والميزان ، والآيات المكية اهتمت بقصص الأمم الخالية . ٣ - آية سورة المطففين دار حولها خلاف وأرجح أنها مدنية . ٤ - كلمة « الميزان » بنوع خاص وردت فى تسع آيات منها خمس مدنيات . ٥ - ويتبقى بعد ذلك أن الآيات المدنية أقرب إلى المعنى المراد من الوسط الإسلامى وهو « تجاور الشيئين مع الموازنة وضبط الحركة الدقيقة بينهما » .

(٢) سورة البقرة الآية ١٤٣ « مدنية » .

(٣) ابن جرير الطبرى (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) المؤرخ والمفسر الشهير ، يعتمد فى تفسيره على المأثور ويستصوب الرأى السلفى .

بالماديات والبعد عن المثل السماوية وتحريفها وقتل دعاتها . وهم فى الوقت نفسه أهل دين ، ولكنهم لا يغالون غلو النصارى وقولهم بالترهب » .

والتعبير الذى اخترته يؤدى الي النتيجة نفسها التى أرادها الطبرى ، ولكنه أكثر اقترابا إلى الروح العربى فى وجهيه الجغرافى والتاريخي ، أى كما صنعته البيئة وضبطه الإسلام ، وفى الوقت نفسه يبتعد عن وسطية أرسطو ، ويجنب نفسه الوقوع فى التيه الذى وقع فيه البعض ، ممن أرادوا أن يطبقوا تقسيمات أرسطو على الواقع العربى ، فلجأوا إلى التقسيمات والتفريعات والتعريفات كما فعل ابن مسكويه فى كتاب « تهذيب الأخلاق »(١) . فقد تحس بالمهارة الذهنية فى تقسيماته ، ولكنه يبتعد عن الواقع العرى وتياراته المتحركة .

الوسطية الاسلامية عربية لا اغريقية ، بمعنى أنها مستمدة من البيئة فى حرصها على التجاور بين الشيئين ، ولكن بعد أن أعطت هذا المصطلح الجغرافى ضابطا أخلاقيا ، انها لا تنظر من جانب واحد . ولا تركز على النقطة الوسطى ، التى يشبهها أرسطو مرة بمركز الدائرة ، وأخرى بالحد الأوسط مقارنا مع الاصغر والأكبر ، فالنقطة الوسطى بهذا التحديد مهارة ذهنية يصعب تحقيقها كما يعترف أرسطو ، وهى - كما يشبه أيضا - مثل نظرية يلزم أن يتعلم المرء حلها . وفضلا عن ذلك فان الوسط الأرسطى ينظر إلى الانسان من عين واحدة فى تحليله النهائى ، هى نقطة الوسط ، لأنها شىء فى مقابل شيئين ، وليست شيئا يجمع بين شيئين ويجاور بينهما ولو كانا متناقضين ، إن الشجاعة مثلا عند أرسطو هى شىء مستقل لا يجمع فى تضاعيفه بين الجبن والتهور ، بل إنه على نقطة متساوية من كل منهما ، ويعتبر ضد كل منهما ، يقول أرسطو : « هذه الاستعدادات الأخلاقية الثلاثة التى منها رذيلتان ، إحداهما بالافراط والأخرى بالتفريط ، ومنها فضيلة واحدة تكون فى الوسط بين الطرفين ، هى كلها بوجه ما متضادة بعضها لبعض ،

---

(١) مثلا ص ٢٣ . وابن مسكويه هو : أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب ، اهتم بكتب الكيمياء والطب والفلسفة ، له كتاب فى التاريخ تحت عنوان « تجارب الأمم » وكتاب فى الأخلاق بعنوان « تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق » وكان قيما على خزانة كتب ابن العميد ، ثم قيما على خزانة كتب عضد الدولة ، ثم اتصل ببهاء الدولة البويهى وعظم شأنه عنده ، وتوفى سنة ٤٢١ هـ فى سن عالية .

فبدهيا الطرفان هما مضادان للوسط ومتضادان بينهما أيضا ، ثم إن الوسط هو مضاد للطرفين »[1] .

ولكن الوسطية العربية واقع جغرافى وتاريخى ، قبل أن تكون مهارة كلامية ، انها حياة يعيشها العربى ، وتجابهه صباح مساء ، وليل نهار ، وجاءت العقائد لتنظيم هذه الحياة ، ووضع القيم لضبطها ، ومن ثم فهى وسطية لا تجمد الانسان ومواقفه الواقعية ، فى نقطة هي مركز الدائرة ، أو هى الحد الأوسط فى قضية منطقية . الوسطية العربية لا تفترض شيئا ، ثم تضعه مقابل شيئين ، ولكنها تجمع وتجاور بين الشيئين ، كما يقتضى الحتم الجغرافى ، ثم تحاول أن توازن وتعادل بين الشيئين ، من أجل ما يتطلبه الضبط والربط ، وتستلزمه مجريات التاريخ ، فالشجاعة العربية ليست شيئا فى مقابل الجبن أو التهور ، بل هى تعترف بالجبن والتهور ، لأنها تعيش هاتين الصفتين ، ولكن الانسان عليه أ لا يتطرف فى جبنه ، وألا يتطرف فى تهوره ، بل يضبطهما ويعادل بينهما .

ونقف قليلا عند كلمة « يعادل » ، فعندها السر لفهم « الوسطية الاسلامية ، ففيها معنى العدل والموازنة بين الشيئين ، وكأننا إزاء « حمل معدول بحمل أى مسوى به » كما قال الأزهرى[2] .

وهذا التفسير المتفق مع الطبيعة العربية التى تراعى الأمرين ليس من اجتهاداتى ، بل هو مستقى من معنى « الوسط » كما فهمه أهل التأويل ، يقول الطبري « وأما التأويل فانه جاء بأن الوسط العدل . وذلك معنى الخيار لأن الخيار من الناس عدولهم »[3] .

فالوسط هو العدل ، والعدل ضابط خلقى يقوم على الموازنة ومن ثم أمكن أن يوصف بأنه خير ، وأن يصبح الوسط بهذا القيد خيرا ، ومن هنا فإن الطبرى حين يصف الوسط بأنه يحوى معنى الخيار ، فإنه يشير بذلك إلى ما ذكره من قبل عن معنى الوسط فى كلام العرب « وأما الوسط فإنه فى كلام العرب الخيار ، يقال منه

---

(١) علم الاخلاق ٢٤٦/١ - ٢٦٢ .
(٢) لسان العرب « عدل » .
(٣) تفسير الطبرى ١٤٢/٣ .

« فلان فى وسط الحسب فى قومه » أى متوسط الحسب إذا أرادوا بذلك الرفع فى حسبه ، وقال زهير بن أبى سلمى :

هم وسط ترضى الأنام بحكمهم إذا نزلت احدى الليالى بمعظم[1]

فالوسط الاسلامى هو عدل وخير ، أو هو خير لأنه عدل ، أو كما قال الزجاج « اللفظان مختلفان والمعنى واحد لأن العدل خير والخير عدل »[2] ، وهو المعنى الذى ارتضاه أهل التأويل للآية الكريمة ، وهو الذى يتفق مع بقية الآية « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » ، فقد ذكر النسفى فى تفسيرها « أن الأمم تجحد تبليغ الأنبياء يوم القيامة ، فيؤتى بأمة محمد فيشهدون عليهم ، ويؤتى بمحمد فيسأل عن حالة أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم .. واستدل بتعميم ذلك من أن الاجماع حجة ، لأن الله تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة » .

ومن هنا فان التفسيرات التى تصف الوسط فى التراكيب العربية بأنه خير وعدل ، هى تفسيرات أقرب إلى السلف والاستعمال اللغوي القديم « وهذا يعرف حقيقته أهل اللغة » كما قيل فى اللسان ، تعليقا على وصف الفاضل النسب بأنه أوسط قومه ، تمثيلا بالوادى والقاع .

وعليه فان التفسير الذى يقترب من الحد الأرسطى للوسط ، يبدو قليلا فى كتب اللغة القديمة ، ويأتى بأسلوب التضعيف « قيل » ، وعلى لسان من يبدو عليه تأثره بالمنطق الأرسطى ، كابن الأثير الذى يشرح الوسط ، بطريقة فيها الكثير من أرسطو ، حتي فى الألفاظ والأمثلة « كل خصلة محمودة فلها طرفان مذمومان ، فان السخاء وسط بين البخل والتبذير ، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، والانسان مأمور بأن يتجنب كل وصف مذموم ، وتجنبه بالتعرى منه والبعد عنه ، فكلما ازداد منه بعدا ، ازداد منه تعريا ، وأبعد الجهات والمقادير والمعانى من كل طرفين وسطهما ، وهو غاية البعد منهما ، فإذا كان فى الوسط فقد بعد عن الأطراف المذمومة بقدر الامكان [3] .

---

(١) من شعراء المعلقات فى العصر الجاهلى . وكان يعتنى بقصائده وينقحها حتى سميت الحوليات . ولد نحو سنة ٥٣٠م وتوفى نحو سنة ٦٢٧ م .

(٢) لسان العرب « وسط » .

(٣) لسان العرب « وسط » .

فإن هذا الأسلوب لابن الأثير يبدو غريبا ، بين التفسيرات الأخرى لهذه المادة ، والتى يفسرها البعض تفسيرا لا يركز على النقطة الوسطى ، فى الجهات والمقادير والمعانى ، ولكن يركز على معنى الخيرية ، حتى لو لم يكن هناك وسط بالحد الأرسطى ، فوسط المرعى هو خيره ، وواسطة القلادة الدرة التى فى وسطها ، وهى أنفس خرزها ، وفى الحديث « الوالد أوسط أبواب الجنة » أى خيرها ، ويقال هو من أوسط قومه أى خيارهم ، ومنه سميت الصلاة الوسطى ، لأنها أفضل الصلوات وأعظمها أجرا ، ولذلك خصت بالمحافظة عليها ، وقال أبو الحسن : هى صلاة الجمعة لأنها أفضل الصلوات .

فالوسط العربى اذن هو العدل ، حتى لو لم يكن وسطا بالمعنى الكمي الذى يقوم على العد والحساب . فصلاة الجمعة مثلا وسط بمعنى العدل ، ولا يمكن أن تكون وسطا بمعنى الحساب ، إلا إذا تكلفنا لذلك كما تكلف بعضهم فى تفسير الصلاة الوسطى ، ممن أورد صاحب اللسان رأيهم بأسلوب التضعيف فقال : « وقيل لأنها وسط بين صلاتى الليل وصلاتى النهار ، ولذلك وقع الخلاف فيها ، فقيل العصر ، وقيل الصبح ، وقيل بخلاف ذلك » .

***

وإذا رجعنا إلى مادة « عدل » فى اللسان ، أمكن أن نضيف إلى الوسط العربى معنى الموازنة ومعنى الاقامة ، أو بصيغة شاملة « نضيف الموازنة التى تؤدى إلى الإقامة » . وهذا يبرز دور العنصر البشرى فى اضفاء معنى « العدال » أو « الموازنة ثم الاقامة » ، إلى الوسطية العربية .

فكلمة عدل تحوى على معنى الموازنة بين الأمرين « وفلان يعدل فلانا أى يساويه ويقال ما يعدلك عندنا شيء ، أى ما يقع عندنا شيء موقعك ، وعدل المكاييل والموازين سواها ، وعادلت بين الشيئين ، وعدلت فلانا بفلان إذا سويت بينهما .. والعدل والعدل والعديل سواء أى النظير والمثيل ... وعديلك المعادل لك ، والعدل نصف الحمل يكون على أحد جنبى البعير .. وفى حديث المعراج : أتيت بانائين فعدلت بينهما ، يقال هو يعدل أمره ويعادله ، إذا توقف بين أمرين

أيهما يأتى يريد أنهما كانا عنده مستويين ، لا يقدر على اختيار أحدهما ولا يترجح عنده »[1] .

فالمعانى تتوارد هنا على مراعاة الشيئين ، وتؤكد أن العدل - أو الوسط العربى - هو الذى يراعى الشيئين ويضبط بينهما ، وليس هو الذى يبحث عن حد ينبثق عن الشيئين ، ويكون له وجوده المقابل ، وهو بهذا المعنى يعيد التكامل إلى الانسان ، ولا ينظر إليه بعين واحدة ، انه لا يلخصه فى مهارة ذهنية كلامية ، انه الوسط الذى يحوى معنى العدل ، الذى يوازن بحكمة بين الشيئين ، وهو المعنى الذى نستطيع أن نستخلصه من كبار مفكرينا القدامى ، مثل أبى سليمان المنطقى[2] ، الذى يهاجم المنطق الأرسطى ، ويدعو إلى استخلاص منطق عربى أصيل ، انه يقول عن الوسط « الوسط فيه الطرفان ، فان الماء الفاتر ، توجد فيه الحرارة والبرودة .. وهذا بيان قول الأوائل : الانسان لب العالم ، وهو فى الوسط ، لا نتسابه إلي ما علا عليه بالمماثلة ، وإلي ما سفل عنه بالمشاكلة ، ففيه الطرفان ، أعنى فيه شرف الأجرام الناطقة بالمعرفة والاستبصار والبحث والاعتبار ، وفيه صفة الأجسام الحية الجاهلة ، التى لم توشح بشىء من الخير ولا فيها انقياد له »[3] .

وتأتى بعد الموازنة خطوة تالية وهى « الاقامة » . واذا رجعنا إلى هذه المادة فى المعاجم ، فسنجد أنها تؤكد الصلات السابقة ، فكما أن العدل - فى بعض معانيه اللغوية - يحوى كلمة الاقامة ، فهو « ما قام فى النفوس إنه مستقيم وهو ضد الجور .. ومن أسماء الله الحسنى العدل ، هو الذى لا يميل به الهوى فيجور فى الحكم .. وعدل الحكم اقامه .. وعدل المكاييل والموازين سواها .. وتعديل الشىء تقويمه .. وكل ما أقمته فقد عدلته » وعلى هذا المعنى يأتى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه « الحمد لله الذى جعلنى فى قوم إذا ملت عدلونى كما يعدل السهم فى الثقاف »[4] فكذلك « الاقامة » تحوى - فى بعض معانيها اللغوية - العدل

---

(١) لسان العرب « عدل » .

(٢) هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام المنطقى السجستانى ، أستاذ أبى حيان التوحيدى ، نسب اليه كتاب بعنوان « صوان الحكمة » والمرجح أنه توفى سنة ٣٨٠ هـ .

(٣) المقابسات ص ٢٦٧ .

(٤) لسان العرب « عدل » .

« وقام الشيء واستقام اعتدل واستوى ، وقوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا »[1] ، يعنى قوله « استقاموا » عملوا بطاعته ، ولزموا سنة نبيهﷺ .. وقام ميزان النهار إذا انتصف ، وقام قائم الظهيرة ، قال الراجز (وقام ميزان النهار فاعتدل) ، والقوام العدل . قال تعالى : « وكان بين ذلك قواما »[2] ، وقوله تعالى : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »[3] ، قال الزجاج : معناه للحالة التى هى أقوم الحالات ، وهى توحيد الله وشهادة أن لا إله إلاّ الله ، والإيمان برسله والعمل بطاعته »[4] .

وكما أن التحليل النهائى لكلمة الإسلام ، يؤدى بطريقة ما إلى كلمة عدل (الإسلام = وسط = عدل) . فكذلك المعنى اللغوى لكلمة « قوم » يفضى بنا إلى كلمة « إسلام » (وفى الحديث أن حكيم بن حزام قال : بايعت رسول اللهﷺ ألا أخر الا قائما . قال له النبى ﷺ : أما من قبلنا فلا تخر الا قائما ، أى لسنا ندعوك ولا نبايعك الا قائما ، أى على الحق . قال أبو عبيد : معناه ، بايعت ألا أموت الا قائما على الاسلام والتمسك به ، وكل من يثبت على الشيء ويتمسك به فهو قائم عليه ، وقال تعالى : « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة »[5] انما هو فى المواظبة على الدين والقيام به .. وفى الحديث : أتانى ملك فقال : أنت قيم وخلقك قيم ، أي مستقيم حسن . وفى الحديث : ذلك الدين القيم ، أي المستقيم الذى لا زيغ فيه ولا ميل عن الحق . وقوله تعالى « فيها كتب قيمة »[6] أى مستقيمة تبين الحق من الباطل على استواء وبرهان عن الزجاج . وقوله تعالى « ذلك دين القيمة »[7] أى دين الأمة القيمة بالحق ، ويجوز أن يكون دين الأمة المستقيمة . قال الجوهرى : انما أنث لأنه أراد الملة الحنيفة .. والملة القيمة المعتدلة . والأمة القيمة كذلك ، وفى التنزيل : وذلك دين القيمة ، أى الأمة القيمة .. وفى التنزيل العزيز : دينا قيما ملة ابراهيم »[8] .

---

(١) سورة الأحقاف الآية ١٣ .
(٢) الفرقان ٦٧.
(٣) الاسراء ٩ .
(٤) لسان العرب « قوم » .
(٥) آل عمران ١١٣ .
(٦) البينة ٣ .
(٧) البينة ٥ .
(٨) الأنعام ١٦١ .

وإذا كنا قد رأينا أن كلمة « وسط » تعنى عند أهل التأويل « العدل » كما ذكر الطبرى ، فكذلك معنى القوام يرتد عند بعض المفسرين إلى شيء قريب من هذا ، ويكون له دلالة خاصة حين يرد فى الآيات التى تحث على الوسط . كقوله تعالى « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »[1] . ويشرح الرازى معنى القوام فى هذه الآية فيقول « قال ثعلب : القوام بالفتح : العدل والاستقامة ، وبالكسر ما يدوم عليه الأمر ويستقر . قال صاحب الكشاف : من القوام العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما ، ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء . وقرىء قواما بالكسر وهو ما يقام به الشيء ، يقال قوامنا يعنى ما يقام به الحاجة ولا يفضل عنها ولا ينقص »[2] .

وهكذا نجد أن هذه الألفاظ يرتد بعضها الى بعض فى سلسلة متماسكة ، وكل حلقة تفضى إلى الأخرى ، فالإسلام هو الدين الوسط وهو الدين القيم ، بمعنى العدالة والموازنة بين الشيئين . وهذه الألفاظ أيضا فى تحليلها اللغوي تفضى بنا إلى الحنيفة ، فالدين القيم هو الملة الحنيفة كما قال الجوهرى فى اللسان ، وهو دين ابراهيم كما جاء فى التنزيل « دينا قيما ملة ابراهيم »[3] ، والحنيف - كما يقول الطبرى - « المستقيم من كل شيء ، وقد قيل بأن الرجل الذى تقبل احدى رجليه على الأخرى ، انما قيل له أحنف نظرا الى السلامة ، كما قيل للمهلكة من البلاد المفازة »[4] .

وهكذا نجد اللغة تهدينا أيضا من جانبها ، إلى أن الاسلام هو امتداد للحنيفة ، وهى التيار العربى الأصيل ، الذى تغلب على التيارات الوافدة ، وعبر عن البيئة العربية ، بعد أن قذف اليها بالعنصر الارادى ، الذى يتعامل مع الطبيعة ويحاول أن يوجهها .

ومن ثم نجد التحليلات اللغوية لهذه الألفاظ ، تبرز العنصر الضابط « فخير الناس هذا النمط الأوسط يلحق بهم التالى ويرجع اليهم الغالى »[5] « والعدل أن

---

(١) الفرقان ٦٧ .
(٢) تفسير الرازى ٣٩٢/٦ .
(٣) الأنعام ١٦١ .
(٤) تفسير الطبرى ١٠٤/٣ .
(٥) لسان العرب « وسط » .

يعرض لك أمران فلا تدرى إلي أيهما تصير فأنت تروى فى ذلك »[1] . « ومعنى القيام العزم ، ومنه قوله تعالى « وأنه لما قام عبد الله يدعوه »[2] أى لما عزم ... ويجئ القيام بمعنى الوقوف والثبات .. ومنه التوقف فى الأمر وهو الوقوف عنده من غير مجاوزة له ، ومنه الحديث : المؤمن وقاف متأن »[3] .

ان الموازنة ثم الإقامة هى المعادل التاريخى ، للمعطى الجغرافى الذى لخصناه فى عبارة « تجاور الشيئين مع تمايزهما » ، إننا نجد أنفسنا فى النهاية وجها لوجه أمام معادلة تصاغ كالآتى (تجاور الشيئين مع تمايزهما جغرافيا = الموازنة ثم الإقامة تاريخيا) .

***

عرفنا أنه من السهل على العربى أن يعيش الشيئين متجاورين ، وأن البيئة تدفعه إلى التطرف فى الجانب الذى يعيشه ، فإذا افتخر تطرف فى فخره ، وإذا هجا تطرف فى هجائه ، ومن هنا كانت معاييرهم الخلقية تخضع لتلك البيئة ، فالكرم إسراف ، والشجاعة تهور ، وهو يندفع إلي مناصرة أخيه ظالما أو مظلوما كما جاء فى أمثالهم ، وهو يرى أن الموازنة ضعف ، والتروى تردد ، قال سعيد بن ناشب المازنى :

إذا هم لم تردع عـــزيمة همـــه
ولم يأت ما يأتى من الأمر هائبا
إذا هم ألقى بين عينيه همـــه
ونكب عن ذكر العواقب جـــانبا
ولم يستشر فى أمره غير نفسه
ولم يرض إلا قائم السف صاحبا

ثم كان الإسلام هو الضابط لهؤلاء العرب ، هو لم يلغ طبيعتهم ولكنه وجهها ،

---

(١) لسان العرب « عدل »
(٢) الجن ١٩.
(٣) لسان العرب « قوم » .

ولم يقسرهم على غير ما هيئوا له ، ولكنه أضاف القيم ، وأعطى للمفاهيم معانى ضابطه ، فليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب ، والمؤمن لا يندفع دون تفكير فى العواقب ، ولكنه وقاف متأن ، وحقا انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، ولكن بمعنى أن تأخذ على الظالم فتمنعه من الظلم ، وتحميه من التردى فى حمأة الحيوانية والطبيعة الأرضية .

فالإسلام لم يتنكر للطبيعة البشرية ، ولم يعمد إلى الغرائز فيكبتها أو يقف فى سبيلها ، بل حاول أن يوجهها بطريقة دافعة ، وأن يستخدم طاقاتها لصالح البشر ، يشبه ابن قيم الجوزية النوازع والغرائز بنهر ، من الناس من يريد أن يقطعه من ينبوعه عن طريق الرياضيات والمجاهدة ، ولكن هذا يخالف الطبيعة البشرية ، ومنهم من ترك النهر يندفع ولجأ إلى الأعمال الصالحة التى هى بمثابة سدود تقاومه . ولكن الأفضل من هذا وذاك ، الفئة التى ترى « أن هذه الصفات ما خلقت سدى ولا عبثا ، وأنها بمنزلة ماء يسقى به الورد والشوك ، والثمار والحطب ... فرأوا أن الكبر نهر يسقى به الغلو والفخر والبطر والظلم والعدوان ، ويسقى به علو الهمة والأنفة والحمية والمراغمة لأعداء الله وقهرهم والعلو عليهم ، وهذه درة فى صدفة وصرفوا مجراه إلى هذا الغراس ، واستخرجوا هذه الدرة من صدفتها ، وأبقوه على حاله فى نفوسهم ، ولكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع ، وقد رأى النبى ﷺ أبا دجانة يتبختر بين الصفين فقال : إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذه المواضع »[1] .

ان صفة « التوقع ش التى كونتها البيئة ، جعلت العربى لا يؤمن بالثبات والاستقرار ، فهو يتوقع إمكانية أن يكون هناك شئ مقابل شئ ، والذات ليست هى كل شئ ، فهناك الغير ، وعالم الماديات ليس هو كل شئ ، فهناك عالم الأسرار والغيبيات . وقد منحته هذه الصفة تفاؤلا ، وإيمانا بأن الصبر مفتاح الفرج ، وأن بعد الغيم قد يهطل الغيث ، وبعد الجوع قد يأتى الخصب ، وبعد العطش قد يجد الماء ، وبعد الخوف قد يأتى الأمن . ومع التفاؤل أصبح متهيئا ومتقبلا لكافة

---

(١) مدارج السالكين ١٧٥/٢ . وابن قيم الجوزية هو الإمام عبد الله محمد ابن أبى بكر (ت ٧٥١هـ) وكان حنبلى المذهب . ومن مدرسة ابن تيمية ، يدافع عن السنة ويقف ضد البدع ، وكان مفسرا وصوفيا ومحدثا وفقيها .

الاحتمالات ، والتى قد تكون فى لحظة ما مستحيلة أو لا تخطر على بال . ودفعهم التوقع إلى المغامرة والاستكشاف فى أرجاء الصحارى الواسعة ، تقرأ شعرهم عن مخاطراتهم فى البيداء واندفاعهم فى المفاوز ، فوق النوق والخيول ، فنحس اننا إزاء روح يريد أن يقبض على العالم بين فكيه ، ان لذة الإستكشاف والبحث عن مجهول هى التى تثيرهم وتحركهم ، ولا تجعلهم يهتمون بنصب ولا أين ، فهو ان التقى بشر فقد كان يتوقع ذلك ، وطبيعة الحياة أن يكون فيها ذلك ، ومن يدرى ، فعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .

لقد عمد الإسلام إلى هذه الصفة فنفخ فيها وأعطاها مفهوما جديدا سماه « التوكل » . إن المرء عليه أن يعمل حسابه لكل شئ وعلى قدر طاقته البشرية ، عليه أن يعد سلاحه ، وأن يغلق بابه ، وأن يعقل بعيره ، ثم بعد هذا كله يتوكل على الله . وقد يحدث - على الرغم من استعداده - ما يخالف ظنه فلا يأسى . لأنه يتوكل على الله ، ويعتقد بوجود قوة أخرى مطلقة لا تسأل عما تفعل . فالتوكل هى صفة التوقع وقد نماها الإسلام . إنه لا يعنى الخمود وترك الأسباب « والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم »[1] كما قيل . ولكنه يعنى التهيؤ لكافة الاحتمالات ، فإن وقع ما يخالف ظنه « نظر إلى قلبه ، فإن وجده راضيا فرحا بذلك ، عالما أنه ما أخذ الله تعالى منه إلا ليزيد من رزقه فى الآخرة فقد صح مقامه فى التوكل وظهر له صدقه » كما قال الغزالى[2] .

وهكذا تتحول هذه الصفة إلى قوة دافعة ، وتحفظ المسلم من السقوط فى براثن اليأس ، كما أنها تجعله مهيأ لكافة الاحتمالات . وقد جعلت لوجود الغير والاحتمالات الأخرى مجالا داخل نفسه وداخل تدبيره ، فهو لا يتعصب لأنه يرى بعينين ، ويتسامح لأنه يدرك أن الحقيقة ليست وجهة نظر واحدة .

إن الإيمان بوجود قوة مطلقة ، لها منطقها الذى يختلف عن منطق البشر ،

---

(١) احياء علوم الدين ٤/٢٥٢٠ .

(٢) الاحياء ٤/٢٥٤٦ . وقد ولد الإمام الغزالى فى طوس إحدى مدن خراسان سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٦ م) . ثم ارتحل إلى جرجان ، ثم إلى نيسابور ، حيث التقى بإمام الحرمين « الجوينى » رئيس المدرسة النظامية إذ ذاك ، ولم يفرق بينهما إلا الموت ، ثم خرج سنة ٤٨٤ هـ . من نيسابور إلى المعسكر ، وظل به حتى ولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٨٤هـ . ثم فاضت روحه بعد عودته إلى بلده سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ م) .

جعل العربى لا يضخم من قدر قواه العقلية ، فأعطاها قدرها المحدود الذى تستحقه ، إنه ليس كالاغريقى يضخم من ميزان الفكر « منطق أرسطو » ، ويقيس به سلوكه وأخلاقياته ، العربى لم يلغ هذا المنطق ، ولكنه أضاف إليه باب الاحتمالات ، وترك المجال مفتوحا لإمكانية وقوع أشياء ، قد لا يحيط بها منطقة البشرى ، وقد تتناسب مع مرحلة دون أخرى . إن المسلم مع تقديره للعلة والمعلول ، واللازم والملزوم ، والسبب والمسبب، لا يندهش حين ينكسر هذا النسق الفكرى ، إنه يقرأ فى القرآن أن الكواكب قد تنتثر ، وأن السماء قد تنفطر ، وأن كل شئ يمكن أن ينحل نظامه ، وهو يجعل للصدفة مجالا للاحتمال ، انه لا يؤمن بالصدفة كقانون ينظم به حياته المعيشية ، ولكن يجعل لها احتمالا ويتهيأ لوقوعها ، فمن يدرى ، ربما ما يسمى « صدفة » بمنطق البشر ، يخضع لمنطق لا نستطيع الإحاطة به .

وبهذا الاستعداد النفسى اندفع المسلم نحو الفتوح بلذة الاستكشاف والبحث عن المجهول ، كالعربى الذى كان يمتطى صهوة جواده ، ويندفع نحو البيداء ، ثم يعود قريرا وقد حمل صيدا فوق كتفه ودخل على أهله . وكذلك المسلم كان يندفع بهذا الروح ، بعد أن أضيف إليه إيمان بالله وتوكل عليه ، ودفاع عن قيم ، واستشراف إلى عالم آخر . فالمجاهدون يندفعون نحو الجهاد وقد وطنوا أنفسهم على كالة الاحتمالات ، قد لا يموت ولكنه حتما سيعود سعيدا مأجورا غانما ، وقد يستشهد فلا يهم ، فمن لم يمت تحت حد السيوف مات بوسيلة أخرى ، فلا نامت أعين الجبناء ، يكفيه أنه سيموت شهيدا ، فرحا بما آتاه الله من فضله ، ومستبشرا بمن سيلحق به .

ذلك هو الروح العربى الإسلامى الذى جعل المسلمين يندفعون نحو الفتوح ، بلذة من يريد أن يضم الدنيا تحت قبضته إرضاء لربه ، لقد كانت الحروب إشباعا لطاقات الفروسية ، وإحياء للملامح العربية التى تتقبل كافة الاحتمالات . لقد فتح البلدان ، واطلع على حضارات مختلفة ، ولكن شخصيته لم تضع ، لأنها كانت تتوقع كل شئ ، ولم يندهش لأنه لا ينظر بعين واحدة ، ولم يتعصب لأن بنيانه النفسى يتوقع الشيئين متجاورين ، وهو يؤمن أن كلمته ليست هى الكلمة الوحيدة ، وأن أفكاره ليست هى التى ينبنى عليها نظام الكون ، نعم هى أفكار بجانب أفكار أخرى محتملة ويتهيأ لوقوعها . انه يؤمن بوجود قوة مطلقة ، تخالف

منطقه ، لا يستطيع أن يفهمها ، ويكفيه أن يؤمن بوجودها ، وأن يهيىء نفسه على تقبل آثارها ، التى قد تهدم آثاره تماما ، أو توجهه وجهة أخرى .

وبهذا المفهوم أصبحت النظرة العربية - بفضل الإسلام - نظرة عالمية ، هى بدأت فى الجزيرة العربية ، ولكنها امتدت إلى أقطار العالم ، واستطاعت أن تضم حضارات مختلفة ، وأن تجد هذه الحضارات عندها الأمن والاستقرار ، وذلك لأن هذه النظرة تحمل فى طياتها بذور العالمية ، فهى واقعية تؤمن بالطبيعة البشرية ، والفطرة الإنسانية ، ولكن دون أن تغرق فى الواقع ، بل لتضيف عالما آخر يجاوره ، بمعنى أن العربى - أو الإنسان ما دمنا نتحدث عن عالمية المذهب - يتحرك بين هذين العالمين ، وقد وضع الإسلام ضابطا لتنظيم هذه الحركة فيما شرحناه سابقا ، وفيما يمكن أن نلخصه فى كلمة واحد هى « العدالة » ، والتى لا تعنى شيئا ذهنيا مجردا كوسطية أرسطو ، ولكن تأخذ فى اعتبارها تجاور الشيئين مع الموازنة بينهما ، كعدلى بعير أو كفتى ميزان .

وقد حرص الإسلام على هذه الحركة الدقيقة ، وترك لمن يعيشون فى ظله الحرية داخل هذه الحركة ، وتتضح دقتها حين ننظر فى تطبيقاتها . فهى موازنة وعدالة بين مسلم وذمى ، وبين عربى ومولى ، وهي موازنة بين دنيا ودين ، وبين زهد وشهوة ، وبين ثروة وفقر . إنها موازنة حين تتحول إلى تطبيق واقعى تصبح غاية الصعوبة ، وخاصة بعد أن إتسعت البلاد الإسلامية ، وانتشرت الفتوحات ، وصبت الأموال فى حجور المسلمين .

وفى ضوء هذا نستطيع أن نفهم قلق عمر بن الخطاب ، وحرصه علي تنفيذ العدالة بدقة ، فهو يخشى على المسلمين من اختلال هذا الضابط ويدرك مدى دقته ، ويعرف أن الإسلام قد بزل وأن بعد البزل النقصان ، فهو يحرص كل الحرص على أن يتلافى هذا النقصان « إنى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار »[1] .

***

(١) تاريخ ٣٩٦/٤ .

ثم كانت السقطة .. وكانت عنيفة كأشد ما يكون العنف ، ان العربى بطبيعته - وكما عرفنا - متطرف يعيش الحالة التى هو فيها حتى منتهاها ، وفى ظل الوسطية الإسلامية تعلم كيف يقيم الميزان بين الكفتين ، وقد كلفه ذلك جهدا شديدا ، حتى استطاع أن يتدرب على الضبط . ولم يتهيأ له ذلك إلا فى ظل عقيدة ، سيطرت عليه ووجهته نحو القيم الجديدة . وكان ابن خلدون محقا فى الفصل الذى عقده بعنوان « العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة ، أو ولاية ، أو أثر عظيم فى الدين علي الجملة ، وذلك لأنهم على خلق التوحش الذى فيهم أصعب الأمم انقيادا »[1] .

فإذا ما حدث أن شالت كفة الميزان ، أو اختل حمل البعير ، فإن الارتطام حينئذ سيكون عنيفا ، وسيرجع العرب إلى جاهليتهم الأولى بل أشد ، لأن هذه المرة ستتدخل عوامل أخرى لتزيد من عمق المأساة ، فان العربى الجاهلى حين يكون عنيفا ، فان عنفه هو عنف الطبيعة ، أو عنف الطفولة . ومن منا من لا يعجبه فورة الطفولة أو عنفوان الطبيعة ، أما عنف السقطة فهو عنف النكوص والتشنج والأمراض النفسية ، ومن منا لا يضيق بالرجل البالغ ، وهو ثائر فائر ، يلقى بالنيران ، ويقذف بالأحجار .

ولم تكن السقطة العنيفة فى أول الأمر بسبب من الخارج ، بل كانت بسبب اهتزاز الوسطية واختلال العدالة . والعدالة لا تعنى مجرد كلمة براقة ، أو خلق جميل ، أو فضيلة مرغوبة ، ولكن - كما رأينا فى تحليلها اللغوى والتاريخى - هى الموقف الاسلامى ، والوسط العربى ، والدين القيم ، والحنفية المستقيمة . فاختلالها هو اختلال للمذهب كله ، اصابة للقيم العربية الحافظة ، ولعنصر الضبط والربط .

لسنا نشك فى دين عثمان ولا فى طيبته وتسامحه ، فقد كان الرجل رقيقا ، متدينا ، يقرأ القرآن ، وكان يبكى من خشية الله ، ويصل الرحم ، ويغدق على أقربائه ، ولكن الفترة لم تكن فى حاجة إلى ذلك ، بقدر ما كانت فى حاجة إلى رجل مثل عمر ، فى حزمه وسده للمخارج التى يمكن أن ينفذ منها الشيطان ،

---

(١) المقدمة ص ١٥١ .

وكثيرا ما كان عثمان - رحمه الله - يتحسر على أيام عمر ويقول « يرحم الله عمر ومن يطيق ما كان عمر يطيق » .

بدأ عثمان يعطى أهله ويقربهم ، فأمر لآل الحكم بثلاثمائة قنطار من الذهب ، كان قد صالح عليها عبد الله بن سعد أهل افريقيا ، وعرض على أبى سفيان أن يرد إليه المال الذى أخذه عمر من عتبة . لولا أن أبا سفيان رفض ذلك مخافة حديث الناس ، وغير ذلك من اعطيات ، جعلت الأمور تتفاقم ، وتصل إلى حد يعبر عنه الإمام على بمرارة « ما يريد عثمان أن ينصحه أحد ، اتخذ بطانة أهل غش ، ليس منهم أحد إلا قد تسبب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها » .

نحن نؤمن بأنه لم يفعل ذلك عن سوء نية ، أو ميل للظلم ، أو ضعف فى العقيدة ، لكن اجتهاده قد وقف عند ذلك ، وكان يحتج بأنه يأخـــذ الحقوق ، ولا يستطيع أن يجبر الرعية على الزهد ، وبأنه « فضـل فضـل من مال ، فمالى لا أصنع فى الفضل ما أريد ، فلم كنت أماما » وبأن عمر كان يولى أقرباءه أيضا .

ولكن عمر لم يكن يولى أقرباءه لأنهم أقرباؤه ، بل لأنهم أهل لذلك ، وكانوا يخشـونه ، وكان « كل من ولى كأنما يطأ على صماخه ، ان بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية » وكان معاوية يخشى عمر أكثر من غلامه « يرفأ » كما يقول الإمـام على ، وكان يأخذ شروطا على العامل إذا استعمله « ألا يركب برذونا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يلبس رقيقا ، ولا يتخذ بابا دون حاجات الناس » .

إن أحد الرجلين - وهو عمر - قد هداه اجتهاده إلى تطبيق العدالة ، وكان يتشـــدد فى ذلك ويقول « لو إستقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء ، فقسمتها على فقراء المهاجرين » . وكان يحبس كبار المهاجرين ويمنعهم من الخروج حتى لا تفتنهم الدنيا « خير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك » . لقد أحس بأن العدالة هى « الوسطية » التى تمسك على العرب توازنهم ، وحدس بالعاقبة التى تحدث لو حصل اهتزاز لتلك الوسطية ، لأن هذا يعنى إهتزاز الروح العام فى الحضارة العربية الإسلامية .

أما الآخر - وهو عثمان - فان اجتهاده لم ينصب على الروح العام وعلى الموقف الذى يحفظ التوازن ويقيم الوسطية ، وإنما انصب على التمسك بالفروض ،

وتجوز فيما عدا ذلك ، ولكن هذا التجوز أدى فى محصلته النهائية ، إلى اختلال التوازن ، وضياع الوسطية التى اهتدى إليها الروح العربى .

إن الأخبار التى تتوارد عن تلك الفترة تؤكد هذا الاستنتاج ، فقد ذكروا أن خاتم الرسول والذى تختم به أبو بكر وعمر من بعده ، قد انسل من أصبع عثمان فى بئر ، فطلبوه ونزفوا الماء فلم يجدوه . وذكروا أيضا أن النبىﷺ جلس على قف بئر ودلى ساقيه ، فجاء أبو بكر يستأذن ، فقالوا ائذنوا له وبشروه بالجنة ، فجلس عن يمينه ثم جاء عمر ، فقال : ائذنوا له ، وبشروه بالجنة ، فجلس عن يساره ، فامتلأ القف ولم يك به مكان ثم جاء عثمان ، فقال النبىﷺ « إئذن له وبشره بالجنة ، معها بلاء يصيبه ، فدخل فلم يجد معهم مجلسا ، فتحول حتي جاء مقابلهم على شفة البئر »[1] .

إن هذه الأخبار فى عمومها تؤكد شيئا واحدا ، وهو أن التاريخ العربى الإسلامى قد بدأ يدخل فى مرحلة اهتز فيها الضابط ، وأصيبت الوسطية التى كانت تقوم على التوازن الدقيق ، وجعل الميزان يتأرجح . ودخل الناس بعد ذلك فى مرحلة الفعل ورد الفعل ، فكان كل ارتطام فى كفة ، تقابلها رجة عنيفة فى الكفة الأخرى ، ولم يعد المسلمون شهداء علي الناس ، بل أصبحوا نهبا للناس .

إن المتتبع بعد ذلك لعناوين الطبرى - وهو الكتاب الذى اعتمدنا عليه فى نقل معظم الشواهد التاريخية السابقة[2] - سيجد أنها تكشف عن المرحلة التى بدا المسلمون يدخلونها ، بعد اهتزاز الوسطية . ففى الجزء الرابع نقرأ « ذكر الخبر عن وفاة أبى ذر - ذكر خبر اجتماع المنحرفين على عثمان - ذكر مسير من سار إلى ذى خشب - ذكر خبرر عن قتل عثمان - مسير قسطنطين ملك الروم يريد المسلمين - خروج على إلى الربذة يريد البصرة - أمر القتال - مقتل الزبير - عدد قتلى الجمل - القتال على الماء » . وفى الجزء الخامس « تكتيب الكتائب وتعبئة الناس للحرب - مقتل عمار بن ياسر - اعتزال الخوارج عليا - تفريق معاوية جيوشه فى أطراف على - ذكر الخبر عن مقتل على - ذكر خروج الخوارج على معاوية - خبر مقتل المستورد - ذكر مقتل حجر بن عدى - ذكر سبب مهلك زياد بن

(١) البخارى ٥٥/٩ عن أبى موسى الأشعرى .
(٢) وبنوع خاص الجزء الرابع .

سمية - ذكر مسير الحسين إلى الكوفة - مقتل الحسين - ذكر أسماء من قتل من بنى هاشم مع الحسين - ذكر الخبر عن إحراق الكعبة - ذكر الخبر عن الوقعة بمرج راهط - ذكر الخبر عن فتنة عبد الله بن حازم - ذكر الخبر عن تحرك الشيع - ذكر الخبر عن مقدم المختار - مقتل نافع بن الأزرق » . وفى الجزء السادس « ذكر الخبر عن حصار بني تميم - شخوص إبراهيم بن الأشتر لحرب عبيد الله بن زياد - خبر مقتل عبيد الله بن زياد - ذكر خبر قتل مصعب المختار - ذكر خبر قتل عبد الله بن مروان سعيد بن عمرو - خبر مسير عبد الملك لحرب مصعب - خبر توجيه عبد الملك الحجاج إلى ابن الزبير - خبر مقتل عبد الله بن الزبير - ذكر الخبر عن حرب المهلب للازارقة - ولاية الحجاج علي الكوفة - ذكر الخبر عن ثورة الناس بالحجاج - نفى المهلب - ذكر الخبر عن تحرك صالح للخروج - خبر دخول شبيب الكوفة وما كان من أمره مع الحجاج - خروج مطرف بن المغيرة على الحجاج - ذكر الخبر عن وقوع الخلاف بين الأزارقة - ذكر الخبر عن خلاف ابن الأشعث على الحجاج - وقعة دير الجماجم - خبرمقتل الحجاج أيوت بن القرية - عزم عبد الملك مروان على خلع أخيه » .

إن قراءة هذه العناوين مقارنة مع العناوين أيام عمر تبين الحال التى بدأ العرب يدخلونها ، لقد انغمسوا فى الفتنة ، وأصبحوا نارا متأججة ، وانبعثت العصبية والأحقاد ، وعادوا إلى جاهليتهم الأولي ، حين كانوا يستجيبون للحتمية المكانية ، وانفلت الزمام الذى كان يضبطهم ، فإذا بهم كالابل الشاردة ، وإذا بالهائعة قد أخرجت خطمها وعينيها كما يقول معاوية ، وإذا بها ترعد وتبرق كما يقول المختار إبن عبيد .

كانت الفترة فى حاجة إلى رجل مثل عمر ، ينظر بعين المستقبل ، ويمسك العرب أن تقع فى الحفرة ، ولكن الفترة لم يكن فيها مثل عمر ، بل الذى كان إما طيبا متسامحا يكفيه أن يقيم المظهر الخارجى للشريعة ، ولم يكن تكوينه مهيئا لأن يتجاوز ذلك فيحرص على الوسطية . ويقيم العدالة ، وإما مثاليا يبغى المثالية فى أقصى حدودها ، ولا ينتظر الوقت ولا يراجع نفسه ، هو اجتهد أيضا ، وهداه إجتهاده إلى التمسك بالحق وعدم التردد ، والتمثيل بقول الشاعر :

متى تجمع القلب الذكى وصارما   وأنفا حميا تجتنبك المظالم(١)

إن الوســطية « العربية - الإســلامية » فى غاية الدقة ، وهى تحتاج إلى « عدال » ، وهو التردد بين أمرين « أيهما يركب » على حد تعبير صاحب اللسان(٢) ، ثم ترجيح أحد الأمرين . ومن هنا خطأ الذين يقفون عند مرحلة التردد لا يجاوزونها ، وخطأ الذين يقطعون برأى قبل أن يدخلوا مرحلة التردد . إن الوسـطية تنبنى كما قلت على « الموازنة ثم الإقامة » ، أى إنها تقتضى الأمرين معا : التردد ثم الترجيح .

إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو الرمز المعبر عن هذه الوسطية ، وهو الدليل على أن نجاحها ليس مرهونا بضيق الرقعة ، فقد أثبتت نجاحها مع اتساع الفتوح ، والاحتكاك بالحضارات الأخرى ، ومع الدخول فى علاقات مع الآخرين ، وباختصار : فان الوسطية على يديه قد أصبحت عالمية تطبيقيا ، بعد أن كانت عالمية نظريا . كان رضى الله عنه متوازنا وحريصا على العدالة ، ولم يكن حرصه حرص اندفاع أو تمســك بجانب ، دون النظر إلى الجانب الآخر ، بل كان يوازن بين الأمرين ، حتى يستقر على الأمر الذى يدافع عنه ، حتى فى مرض وفاته يضع نظاما للشورى ، ويوصى أصحابه بالعدالة « أنشدك الله ياعلى إن وليت من أمور المسلمين شيئا أن تحمل بنى هاشم على رقاب لاناس ، أنشدك الله ياعثمان إن وليت من أمور المسلمين شيئا أن تحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس ، أنشدك الله ياسعد إن وليت من أمور المسلمين شيئا أن تحمل أقاربك على رقاب الناس » .

كان رضى الله عنه هو الرمز المعبر عن الوسطية ، وكانت كل الاتجاهات بعده تتطلع إليه ، كان عثمان يقول عنه « أتعب والله من تبع أثره » وكانت الخوارج تقول : « فلسنا نبايعكم أو تأتونا بمثل عمر » ، وكان عمر بن عبد العزيز يتطلع إيه وهو يرمى إليه بنسب من ناحية أمه .

إن الوسطية - كما قلت - فى غاية الدقة ، إنها كالصراط المستقيم الذى

---

(١) طلب قوم من على أن يتريث فى أمر معاوية ، فتمثل بهذا البيت ، فعرف الناس أنه السيف وخرج جمل على نحو الشام . (تاريخ الطبرى ٤/٤٤٥) .
(٢) لسان العرب « عدل » .

يفصل بين الجنة والنار ، أو كهذا البرزخ الذى يفصل بين بحرين يتجاوران ولكن لا يبغيان . ومتى أمكن التنبه لهذه الشعرة ، فان النفس العربية تفعل المعجزات ، لأنها ستتفجر عن طاقاتها . ومتى ما كان الحاكم غير متنبه لها فان التوازن يختل ، وينبعث التطرف من جديد ، عنيفا كتيارات بحر النبط .

إن كل الحضارة التى عرفها العرب ، كانت رد فعل لتلك الفترة القصيرة ، التى طبقت فيها الوسطية تطبيقا كاملا ، فترة كانت بذورها كامنة فى الحنفية ، ثم ابتعثها الإسلام وأحياها ، وجعلها تطل على العالم ، ثم جاء عمر فأعطاها صفة العالمية تطبيقيا .

وإن كل الاضطراب والفتن التى دخل فيها التاريخ العربى ، كانت رد فعل لاختلال تلك الوسطية ، وقد بدأت البذور الأولى لهذا الاختلال أيام الفتنة ، وأخذت تتنامى وتثمر حنظلا ، إلى أن انتهت بسقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ على يد التتار تاريخيا ، ولكن البداية كانت فى السقطة الأولى التى سنتتبع الآن فصولها .

***

اكتفى عثمان بتطبيق الفروض ، ورخص لنفسه أن يقرب أقرباءه ، وأن يقطعهم الأرض ، وأن يتخذهم بطانة ، وأن يصغى لمشورتهم دون الناس . وكان رد الفعل تذمرا من الجانب الآخر ، وإحساسا بأن العدالة لا تطبق .

فى تلك الظروف ، ظهرت سنة ٣٠ هـ دعوة أبى ذر كتطبيق للعدالة ، إنه وقف ضد الذين يقولون « مال الله » ، يريدون أن يحتجنوه دون المسلمين ، وكان يقول « مال المسلمين » ، وليس لأحد حق فى مال الله إلا ولى مثله ، وكان يخطب فى الشام « يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ، وما زال حتى ولع الناس بدعوته ، وأوجبوها على الأغنياء ، وحتى شكا الناس إلى عثمان ، فكان عثمان بحاجة بأنه لا يستطيع أن يجبر الناس على الزهد ما داموا يدفعون الفروض .

المهم أن الفعل ورد الفعل قد بدأ ، وأن عدلى البعير أخذ يؤرجح كل منها

الآخر ، فاذا قال معاوية هذا المال مال الله ، قال أبو ذر هذا مال المسلمين ، وإذا قال سعيد بن العاص عن سواد العراق « هذا السواد بستان لقريش » ، أجابه الأشتر « أتزعم أن هذا السواد الذى أفاء الله علينا بأسيافنا ، بستان لك ولقومك ، والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبا إلا أن يكون كأحدنا » .

وأخذت الأمور تتطور ، والاعتراضات تشتد ، كلها منكرة على عثمان هذا الصنيع ، ويبعثون إليه الرسل ، يرسلون إليه عليا فيقول له « تعلم ياعثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدى وهدى » أو يقول له « الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك » . وكان عثمان يجيب المعترضين « ألا فقد والله عبتم على بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له ... أما والله لأنا أعز نفرا ، وأقرب ناصرا ، وأكثر عددا ، وأقمن إن قلت : هلم ، أتى . ولقد أعددت لكم أقرانكم ، وأفضلت عليكم فضولا ، وكشرت لكم عن نابى » « ما أنا إذا فى شىء إن كنت استعمل من هويتم وأعزل من كرهتم الأمر إذا أمركم ، لم أكن لأخلع سربالا سربلنيه الله » « إن الإمام يخطئ ويصيب ، فلا أقيد من نفسى ، لأنى لو أقدت كل من أصبته بخطأ ، آتى علي نفسى » فضل فضل من مال ، مالى لا أصنع فى الفضل ما أريد ، فلم كنت اماما » .

وكان أحيانا يبدى استجابته للناصحين ، ولكن المحيطين به يجعلونه يغير آراءه . فازداد ضيق ناصحيه ، قال له على مرة « إنى قد كلمتك مرة بعد مرة ، فكل ذلك تخرج فتكلم وتقول ما تقول ، وذلك كله فعل مروان ابن الحكم ، وسعيد ابن العاص ، وابن عامر ، ومعاوية ، أطعتهم وعصيتنى » وقال له أخرى « أما رضيت من مروان ، ولا يرضى منك ، ألا بتحرفك عن دينك وعن عقلك ، مثل جمل الظعينة ، يقاد حيث يسار به » .

وانفلت الزمام ، وتطرف المحاصرون ، ومنعوا عثمان الماء وقتلوه ، وأحرقوا داره ونهبوها ، وأخذوا ما على النساء . وتهجموا عليهن ، وتنادوا « ادركوا بيت المال لا تستبقوا إليه » .

***

ودخل التاريخ بعد ذلك فى سلسلة من التطرفات ، الوسطية اهتزت ، والميزان اختل ، وحملا البعير اضطربا ، ووقع المسلمون فى النار ، التى كان يحوطهم عنها عمر بحزمه وعدالته ، وإذا بسلسلة من التطرفات يجر بعضها بعضا ، وتنبنى على الفعل ورد الفعل .

١ - فحين تمكن الأمويون « أقام بسر بن أرطاة بالمدينة شهرا . يستعرض الناس ، ليس من أحد يقال : هذا أعان على عثمان إلا قتله . وجد قوما من بنى كعب وعلفا هم على بئر لهم فألقاهم فى البئر » . وأخذ ابن زياد يخطب فى الناس خطبته البتراء « وانى أقسم بالله ، لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد . أو تستقيم لى قناتكم ... وايم الله ان لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرى منكم ان يكون من صرعاى » ، وعامل الحسين وصحبه حينما ساروا نحو الكوفة بطريقة عنيفة حاقدة ، فيأمر بضرب عنق مسلم بن عقيل ، ثم يلقى الجسد من القصر ويتبعه الرأس ، ويقول لعبد الله بن سعد حين سيره إلى الحسين « فان قتل الحسين فاوطىء الخيل صدره وظهره ، فانه عاق مشاق قاطع ظلوم ، وليس دهرى فى هذا أن يضر بعد الموت ، ولكن على قول لوقد قتلته فعلت هـذا به » .

و « وجد بالحسين عليه السلام حين قتل ثلاث وثلاثون طعنة ، وأربع وثلاثون ضربة ، وجعل سنان بن أنس لا يدنو أحد من الحسين . إلا شد عليه ، مخافة أن يغلب على رأسه ، حتى أخذ رأس الحسين فدفعه إلى خولى ، وسلب الحسين ما كان عليه ، فأخذ سراويله بحر بن كعب ، وأخذ قيس بن أشعث قطيفته .. وأخذ نعليه رجل من بنى أود .. وأخذ سيفه رجل من بنى نهشل ، ومال الناس على الورس والحلل والابل وانتهبوها . ومالوا على نساء الحسين وثقله ومتاعه ، فان كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها » ، وجعل ابن زياد ينكث بقضيب بين ثنيتى رأس الحسين ساعة ، ولما تأثر شيخ وبكى قال له « أبكى الله عينيك ، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك» .

٢ - ومن الناحية المقابلة كان رد الفعل عنيفا أيضا ، ولما ينته العصر الأموى ، فقد تطرف المطالبون بدم الحسين . ان المختار بن أبى عبيد « أخذ لا يمر

عليه برجلٍ قد شهد قتل الحسين ، إلا قيل له : هذا من شهد قتله . فيقدمه فيضرب عنقه ، حتى قتل منهم قبل أن يخرج مائتين وثمانية وأربعين قتيلا ، وأخـذ أصحابه كلما رأوا رجلا وقد كان يؤذيهم أو يحاربهم أو يضربهم ، خلوا به فقتلوه ، حتى قتل ناس كثير منهم وما يشعر بهم المختار » ، وكان يقول « والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أقلة من أناملة » . ويأمر أصحابه « اطلبوا لى قتلة الحسين فانه لا يسوغ لى الطعام والشراب حتى اطهر الأرض منهم » . فتبعوهم ، فمنهم من قطعوا يديه ورجليه . وتركوه حتى مات . ومنهم من قتلوه وأحرقوه وذروه رمادا ، أما ابن زياد فقد ضربه الأشتر فقده نصفين ، وذهبت رجلاه فى الشرق ويداه في الغرب .

لقد دخل العرب فى فترة لا ضابط لها ، كليل الصحراء ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج المرء يده لم يكد يراها ، وأخذ شاعر مثل الكميت ينبه إلى أن العدالة قد ضاعت وأن الأمور قد انحرفت ، أو بعبارة أقرب إلى ما نحن فيه ، اختلت الوسطية وضاع التوازن الدقيق ، يقول مادحا بنى هاشم :

أخذوا القصد فاستقاموا عليه حين مالت زوامل الآثام[1]

ونتيجة حتمية لضياع التوازن ، أن تطرف الحاكم والقواد ، وأصبحت القسوة طابعا مميزا لهم ، وتحولت خطبهم إلى كلمات نارية كأنها جهنم ، أو كأنها قيلولة الصحراء ، ولم يخفف من وقعها نسمة رقيقة أو مسحة حنونة ، لقد أصبح العربى يعيش جانبا واحدا (جانب القسوة) ، مع أن الجغرافيا قد أعدته لكى ينتقل بين الأمرين ، ومع أن التاريخ قد نظم العلاقة بين هذين الأمرين . فظهر قادة ساموا الرعية بالعنف والقسوة من أمثال زياد ، وابنه ، وعبد الملك ، والمختار ، وبرزت أسماء تتخصص فى الحرب ، وتؤجر نفسها للفريق الغالب ، ان المهلب ابن أبى صفرة كان من جيش ابن الزبير ، ثم أصبح من جيش عبد الملك ابن مروان ، وان الاشتركان في جيش المختار . وبعد مقتله أرسل إليه مصعب ، وأرسل إليه عبد الملك ، كل منهما يستدعيه إلى جيشه .

---

(١) الكميت بن زيد ص ١١١ . الزوامل : الابل التى تحمل عليها الحمولة . وقد ولد الكميت بن زيد الأسدى فى الكوفة سنة ٦٠هـ ، وتأدب على علمائها وأخذ عن الاعراب ، وكان متشيعا لآل البيت ، واشتهر بهاشمياته فى مدحهم ، وقتل سنة ١٢٦ هـ .

وتعطشت النفوس للدماء ، وأصبح منظر الدم مألوفا ، بل ربما يبعث على التلذذ والتشفى ، وليس من قبيل الصدفة أن يسمى الناس عام عثمان عام رعاف ، وليس من قبيل الصدفة أنهم بعد مقتل الحسين « لبثوا شهرين أو ثلاثة كأنما تلطخ الحوائط بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى ترتفع » ، وليس من قبيل الصدفة أن يتحـــدث الطبرى مثلا عن الرءوس التى تحز ، وعن الأعضاء التى تبتر ، وعن النساء التى تبقر ، وعن الرءوس التى تلقى فوق القصور ، وعن الكف التى تعلق على الحائط بمسمار .

ان الحجاج بن يوسف (٤٢ - ٩٥ هـ) هو الرمز المعبر عن فترة السقوط . وهو ثمرة اختلال العدالة واهتزاز الوسطية . انه تمثيل لجانب العنف الذى بدأ العرب يعيشونه ، لقد أحيط مولده بطائفة من الأساطير معبرة ، فيزعمون أنه أبى أن يقبل أمه ، فتصور لهم الشيطان فى صورة الحارث بن كلدة[1] ، فقال اذبحوا جديا أسود وأولغوه دمه ، فاذا كان اليوم الثالث ، فاذبحوا تيسا أسود ، وأولغوه دمه ، وأطلوا به وجهه ، فانه يقبل الثدى « ففعلوا به ذلك ، فكان بعد لا يصبر عن سفك الدماء اما كان فى بدء أمره »[2] .

حقا ، كان لا يصبر عن سفك الدماء ، مات فى سجنه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة[3] ، يتلذذ بتعذيب الآخرين ، وكان يغيظه أن يزيد بن المهلب يتحمل التعذيب ولا يصيح ، وحين عرف أنه رمى بنشابة فثبت نصلها فى ساقه ، فهو لا يمســها الا صـاح ، أمر أن يغدب ويدهق[4] ساقه ، لكى يتلذذ بســماع صياحه ، حتى أحلامه كانت تختلط بالدماء والعنف ، قال مرة لعبد الملك « انى رأيت فى منامى أنى أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابعثنى إليه » . وخطبه يتردد فيها ألفاظ ، القطف ، الدمـاء ، اللحو ، الضــرب ، قال مرة لأهــل الكوفة « وانى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وانى لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى ... أما والله لالحونكم لحو العود ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الأبل » .

***

(١) كان زوجا لأم الحجاج فطلقها ثم تزوجها من بعده أبو الحجاج يوسف بن عقيل الثقفى .
(٢) مروج الذهب ١٣١/٢ .
(٣) مروج الذهب ١٥٨/٢ .
(٤) الدهق : شد الساقين بخشبتين .

وكانت نتيجة حتمية أن تنتشر الأمراض النفسية في ظل تلك الظروف الاستثنائية ، التى لا تسمح بنمو الشخصية السوية ، قسوة وعنف واضطراب وضـياع للهدف وفقدان الطمأنينة ، ان الشخص لا يأمن على نفسه ، قد تدهمه خيل ، أو يعلق به خـارجى ، أو تأخذه ريبة من حاكم ، وبذلك انحرفت الشخصية العربية ، وأصيبت بالأمراض النفسية ، إن القارىء لتاريخ هذه الفترة ، تصـدمه أمثلة ، لا يجد تفسيرا لها ، الا فى ظل علم النفس التحليلى :

١ - يصف الطبرى مبارزة بين معسكر ابن زياد ، وأنصار الحسين ، فقد ضرب برير بن حضير من أنصار الحسين ، يزيد بن معقل ضربة « قدت المغفر وبلغت الدماغ ، فخر كأنما هو من حالق ، وان سيف ابن حضير لثابت فى رأسه ، فكأنما أنظر إليه ينضنضه فى رأسه ، وحمل عليه رضى بن منقذ العبدى ، فاعتنق بريرا ، فاعتركا ساعة ، ثم ان بريرا قعد على صـدره فقال رضى : أين أهل المصـاع والدفاع . فذهب كعب بن جابر بن عمرو الأزدى ليحمل عليه ، فقلت : إن هذا برير ابن حضـير ، القارىء الذى كان يقرئنا القرآن فى المسجد . فحمل عليه بالرمح حتى وضعه فى ظهره ، فلما وجد مس الرمح برك عليه ، فعض بوجهه طرف أنفه ، قطعه كعب بن جابر حتى ألقاه عنه ، وقد غيب السنان فى ظهره ، ثم أقبل عليه يضربه بسيفه حتى قتله » .

٢ - ويصف صراعا بين تميمين على رأس حبيب بن مظاهر من أنصـار الحسـين ، قال أحدهما « أعطنيه أعلقه فى عنق كرسى ، كيما يرى الناس ويعلموا أنى شركت فى قتله . ثم خذه أنت بعد فامض به إلى عبيد بن زياد . فلا حاجة لى فيما تعطاه على قتلك إياه » ، فدفع إليه الرأس وجال به فى المعسكر وقد علقه فى عنق فرسه ، فلما رجعوا إلى الكوفة ، أخذ الآخر الرأس فعلقه فى لبان فرسه ، فابصره ابنه « القاسم بن حبيب » وطلب منه أن يعطيه الرأس ليدفنها فأبى ، حتى إذا ادرك الغلام لم يكن همه الا اتباع قاتل أبيه ، وحين وجد منه غرة أيام مصعب ابن الزبير ، ضربه بسيفه حتى برد .

٣ - دعا الحسين على رجل منعه الماء ، فابتلاه الله وأخذ يصيح « ويلكم اسـقونى قتلنى الظمأ » فيعطى القلة أو العس فما يرويه ، وما لبث الا يسـيرا « حتى انقد بطنه انقداد بطن البعير » ، ودعا علي رجل كان قد أهوى على يد

غلام من أهله ، فكانت يداه « فى الشتاء تنضحان الماء ، وفى الصيف تيبسان كأنهما عود » .

٤ - « أتى الحجاج بسعيد بن جبير ، وهو يريد الركوب ، وقد وضع احدى رجليه فى الغرز أو الركاب ، فقال : والله لا أركب حتى تبوء مقعدك من النار . واضربوا عنقه . فضربت عنقه ، فالتبس مكانه فجعل يقول : قيودنا قيودنا ، فظنوا أنه قال : القيود التى على سعيد بن جبير . فقطعوا رجله من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود ... فلم يلبث (الحجاج) بهذه إلا نحوا من أربعين يوما ، فكان إذا نام يراه فى منامه يأخذ بمجامع ثوبه ويقول : يا عدو الله لم قتلتنى ؟ فيقول : مالى ولسعيد بن جبير ، مالى ولسعيد بن جبير » .

٥ - ويحكون عن بسر بن أرطاة العامرى ، الذى قتل عبد الرحمن وقثما ابنى عبيد بن العباس أنه خرف « حتى ذهل عقله واشتهر بالسيف ، فكان لا يفارقه ، فجعل له سيف من خشب ، وجعل فى يديه زق منفوخ ، كلما تخرق أبدل ، فلم يزل يضرب ذلك الزق بذلك السيف حتى مات ذاهل العقل بخرئه ، وربما كان يتناول منه ، ويقبل على من يراه فيقول : انظر كيف يطعمنى هذا الغلامان ابنا عبيد الله . وكان ربما شدت يداه إلى وراء منعا من ذلك . فأنجى ذات يوم فى مكانه ، ثم أهوى بفيه ، فبادروا إلى منعه فقال : أنتم تمنعونى وعبد الرحمن وقثم يطعمانى »[1] .

٦ - حين تمكن عبد الملك بن مروان من عمرو بن سعيد ، ضربه بالضمضامة ، وجلس علي صدره فذبحه ، وانتفض عبد الملك رعدة ، فحمل عن صدر عمرو ووضع على سريره ، وبعد ما قتل مصعب أمر عبد الملك بطعام كثير وشهى ، وأكل حتى شبع ، وقال « ما ألذ عيشنا لو أن شيئا يدوم » .

٧ - وانتشر - فى اقليم الحجاز بنوع خاض - الانتحار والاغماء وغير ذلك من ضروب الهروب من الواقع ، فشاب يهديه ابن جعفر الجارية التي يحبها فيقع ميتا[2] ، وآخر يسمع غناء حبيبته فيلقى بنفسه من القصر ، ثم تلحق به وتجأ

---

(١) مروج الذهب ٢/١٥٥ .
(٢) العقد الفريد ٣/١٩٩ .

نفسها فى حفرة[1] ، والمجنون يسمع من ينادى اسم ليلى فيغمى عليه[2] ، وبثينة سارت جميلا بشى فخر مغشيا عليه[3] .

تلك هى فترة سقوط الوسطية العربية ، وقد ركزنا عليها وبينا نتائجها ، من الناحية النفسيه والسلوكية . ولم نفعل ذلك رغبة فى التشهير ، وإبراز العنصر الدموى فى ملحمة التاريخ العربى . ولكن لأن هذه الفترة كانت هى نقطة البداية لتشويه الشخصية العربية ، وانحرافها عن الصراط المستقيم والدقيق ، فالتركيز هنا يعنى كشف الطريق أمام القوة الدافعة ، لكى تفجر طاقاتها من جديد وتستعيد مافات ، ويعنى أيضا أن هذه السقطة ليست نتيجة أمر خلقى (بيولوچى) فى التركيب العربى ، ولكنه انحراف عن الوسط ، الذى أوجدته البيئة ، ونماه التاريخ ، وإذا بكل الصفات التى كانت موجبة تتحول إلى قوة سالبة ، تعمل على هدم النفسية العربية وتمهد للتدخل الخارجى .

إن صفة مثل صفة « التجاور بين الشيئين » التى غرستها الطبيعة فى النفسية العربية ، والتى جاء الإسلام فنماها ، إذ اتصفت تعاليمه بالواقعية ، التى تراعى الجانب البشرى والمادى والدنيوى ، جنبا إلى جنب مع الجانب الإلهى والمثالى والدينى . إن صفة كهذه انحرفت تحت تلك الضغوط السابقة ، فأصبحت نفاقا ، وأتاحت طبيعة العربى التى تسمح للشيئين أن يتجاورا فى داخله ، لهذه الصفة أن تنمو وأن تتخذ صورا مختلفة ، فيحدثنا التاريخ عن الحكام الذين يلقون الناس بوجه ، حتى إذا خلوا إلى بطانتهم تغير الوجه ، وعن هؤلاء المحكومين الذين قال عنهم الحجاج « يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا ويقول والله ما فعلت ولا شهدت »[4] ، وعن أصحاب المهلب الذين يكونون مرة مع مصعب وأخرى مع عبد الملك ،وحين عاب عليهم الأزارقة ذلك أجابوهم « رضينا بذلك إذ كان ولى أمورنا ، ونرضى بهذا كما رضينا بذاك » .

إن القهر هو المسئول عن تلك الصفة المرضية ، فقد كان العربى يعيش الحالتين

---

(١) العقد الفريد ١٩٨/٢ .
(٢) الأغانى ١٦٨/١ .
(٣) الشعر والشعراء ٤٠٥/١ .
(٤) المحاسن والاضداد ص ٢٤ .

فى صدق ، وله الحرية فى التنقل بينهما ، مما جعله مصطلحا مع نفسه لا يقول إلا بما يشعر ، ومنسجما مع حياة البوادى والبرارى ، التى تكره النفاق ، لأنه قسيم العبودية والموت . ولما جاء الإسلام لم يلغ هذا الصدق ، ولكنه نظم الحركة ، وأعطى لحرية الانتقال شيئا من الوسطية والضبط ، ولكن انحراف السقطة أدى إلى تلك الصفة المرضية ، التى تقف ضد تيار الحركة ، إنها تجمد على السطح حالة تختلف عن الحالة التى بالداخل ، كمن يعترض سطح البحر بخشبة تعرقل سيره ، بينما التيارات فى أعماقه تتصارع ، ولا شك أن هذه الحالة - التى لا تقوم على الاصطلاح بين الداخل والخارج بل التناقض - لن تدوم كثيرا ، إذ تسبب فى اصطفاق المياه وتضاربها ، مما يودى بالخشبة ، وتنكشف الحالة عن الخطورة التى كانت خافية ، والتى أشار إليها القرآن الكريم فى تحليله الرائع لتلك النفسية الخربة والتى تتناقض مع الصدق والحرية « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو ، فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون »[1] .

وعرفنا أن العربى كان أقرب إلى الطبيعة فى صدقها وتبدلها ، وأن هذا أعطاه روح فنان وحبا للتجدد . وضيقا بالركون إلى حالة واحدة ، وغرس فى نفسه الصراحة وحسن الطوية والبعد عن الالتواء ، ثم جاء الإسلام فنمى هذه الصفة ، وسماها الفطرة ، وأطلق على نفسه دين الفطرة والطبيعة ، مما أتاح له صفة العالمية والانتشار . ولكن هذه الصفة انحرفت بعد مرحلة السقطة ، ففقدت ما بها من يسر وسهولة ، وأصبحت التصاقا بالواقع وتشبثا بالمعطى الأول ، واتخذت مظهرين ، إما مظهر الجهل الذى يساير الحياة اليومية ويتقبل قوالبها ، فتجمد عنده روح الفن والاندهاش ، وإما مظهر أشد خطورة ، وهو المرض النفسى ، الذى يتجه إتجاها عيانيا نحو الواقع ، والذى هو إحدى خصائص الفصامى « الاتجاه العيانى واقعى ، وهو خبرة الأمور فى طبيعتها ، وفهم الشىء فى صورته الحالية وفى وحدته الخاصة ، ومهما كان هذا الفهم إحساسا أو إدراكا ، فإنه لا يعد تفكيرا بناؤه الجدل ، فان ما يوجبه هذا النوع من التفكير - إذا أطلق عليه تفكيرا - هو المظهر المباشر للمعطى ، حيث يستجاب إليه دون أعمال الفكر فيه ، فتصبح تلك المظاهر أو ذلك

---

(١) سورة المنافقون ، الآية ٤ .

الجانب وحده ، ربطا بين الشخص والمعطى ، ويعوق هذا الرباط إدراك الشخص لأوجه أخرى فى المعطى ، فلا يعد قادرا على إعتباره جزءا من كل ، ويلاحظ ، أن هذا الاعتماد على المظهر المباشر للمعطى ، مرتبط بالجمود ، ونقص يعيب القدرة على التنقل بين الأوجه المختلفة للمعطى ، وتلك خاصية مرضية »[1] .

مرة أخرى نجد القهر هو المسئول عن هذا الانحراف النفسى ، فقد جمد عند العربى روح الفن ، والاستجابة للواقع ، استجابة دافعها الحركة المتوترة والحرية بين الداخل والخارج ، ومن ثم أمات صفات اليسر والسهولة ، وجعل النفس - بدافع الخوف - تلتصق بالواقع وتصبح ظلا ، وتكتفى بالتقبل وبالجمود عند القوالب اليومية ، وتبتعد عن الربط بين السبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، وعن إدراك الأشياء فى وحدتها الكلية .

وعرفنا أيضا أن صفة « التجاور بين الشيئين » غرست عند العربى ميزة « التوقع » وأن تلك الميزة هى المسئولة عن روح الفروسية والمغامرة والاندفاع فى البيداء . إن العربى يؤمن بالمحتمل والممكن ، فدوام الحال من المحال ، فلعل مكانا آخر يكون ممطرا ، ولعله في وجهة أخرى يلتقى بمرعى ، ومن هنا فهو يتنقل بحثا عن تغيير حالته ، ولما جاء الاسلام إعترف بمضمون هذه الصفات ، ونفخ فيها وأعطاها اسما جديدا وهو « التوكل » ، الذى يعنى الاستعداد من جانب الإنسان ، وترك الباب مفتوحا أمام الاحتمالات الأخرى ، فجعلت المسلم يتقبل الحضارات الأخرى ، ولا يقف إزاءها متعصبا أو مغمض العينين ، وأعطته طاقات نفسية يحتمل بها الفشل لو وقع ، وغرست لديه روح التفاؤل وأن مع العسر يسرا ، « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه »[2] . وجددت لديه صفة الفروسية والمغامرات ولكن نحو الجهاد . وفتح البلدان ، ورفع راية الإسلام . ولكن هذه الصفة الموجبة انحرفت فاذا بها تصبح « تواكلا » ، وإذا بها تعنى الطفولة والاعتماد على الغير « والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم » ، وإذا بها تتحول إلى صفة للجمود والكسل ، وعدم البحث وراء الجديد ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان ولا جديد

---

(١) جنون الفصام ص ٤٣ .

(٢) سورة الطلاق ، الآيتان ٢ و ٣ .

تحت الشمس ، وإذا بها فى ظل القهر تستدعى تراثا ضخما من خوف العربى فى الصحراء ، وإذا بهذا الخوف لا يدفع هذه المرة إلى الفروسية والتحدى ، ولكنه يدفع إلى الانكماش والإحساس بالضآلة والصغر ، لقد كان الفارس القديم يندفع نحو القتال ، ويحقق ذاته من خلال التحدى والصراع ، أما بعد ذلك فقد تغير مفهوم الفروسية ، وأصبح انكبابا على الذات ، وتصور بطولات وهمية ، مما يفصح عنه جميل[1] فى قوله :

يقولون جاهد ياجميل بغزوة ... وأى جهـــاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهى بشـاشة ... وكل قتيل بينهن شـــهيد

***

وهكذا نجد الصفات العربية تنحرف - فى ظل القهر - فاذا بها تصبح صفات معوقة ، وإذا بنا أمام سلسلة ، كل حلقة تؤدى إلى الأخرى ، ويمكن أن نلخصها فى المعادلات الآتية :

تجـاور + واقعية - نفـاق = ؟
طبيعية + فطرة - فصـام = ؟
تـــوقع + توكل - تواكل = ؟

ويمكن أن نرد هذه المعادلات الثلاث إلى معادلة واحدة ، إذا لجأنا إلى الرموز التى جعلنا كل رمز منها يجسد مرحلة تاريخية ، وهو فى الوقت نفسه رمز إلى السبب الكامن وراء كل مرحلة تاريخية :

عطيل + عمر - الحجاج = ؟

وهكذا نجد السؤال فى نهاية المعادلة يفرض نفسه بالحاح « ثم ماذا يساوى كل ذلك ؟) ولا شك أن الاجابة عن هذا السؤال ، ستكون حديثا عن التاريخ الذى يصنع الآن ، وأرى أن أرجئه إلى فصل « المعاصرة » أو الحكمة الساكنة .

---

(١) هو جميل بن معمر العذرى ، من شعراء العصر الأموى ، اشتهر بغزله العفيف ، نشأ فى البادية ، وأحب ابنة عمه « بثينة » واشتهر بها ، وقد لقى فى سبيل حبه المتاعب والنفى ، حتى لجأ إلى مصر . أيام ولاية عبد الرحمن بن مروان ، وأقام بها حتى مات سنة ٨٢ هـ .